تعليقات

الشيخ صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي

حفظه الله تعالى

على

عَلَى فُصُولٍ
في سَوابِقَ وَمُقَدِّمَاتٍ للتَّفسِيرِ
مِن كِتَابِ
المُعتَمدُ مِنَ المَنْقُولِ
للعَلامَةِ حَيْدُرُ القَاشِيِّ

رَحِمَهُ اللهُ رحمة واسعة

النُّسخة الإلكترونيَّة (١)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بالتنسيق مع موقع: http://www.j-eman.com

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحمد لله وحده والصلاة والسلام علىٰ من لا نبي بعده، سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه، وأشهد ألا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له شهادة العبادة والتوحيد، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله شهادة الإتباع والتجريد.

أما بعد..

فهٰذا (المجلس الأول [والثاني]) من **الدرس الثالث** من **برنامج منتخبِ الأبواب والفصولِ الثاني**، والمقروء فيه (**فصول في سوابق ومقدّمات للتفسير**)، منتخبة من كتاب (**المعتمد من المنقول**) للعلاّمة حيدرٍ القَاشي رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ.

وقبل الشروع في إقرائه لابد من ذكر مقدمتين اثنتين:

المقدمة الأولىٰ: التعريف بالمصنف وتنتظم في ستة مقاصد.

المقصد الأول: **جرُّ نسبه**: هو الشيخ العلامة حيدر بن علي بن حيدر القَاشِي، يلقّب ببهاء الدّين.

المقصد الثاني: **تاريخ مولده**: لم يوجد لهٰذا العَلَم ترجمة تدل علىٰ تفاصيل جُمل حياته، كتاريخ مولده أو وفاته أو ذكر شيوخه أو تلاميذه، لكنّه كان حيّا سنة ستٍّ وسبعين بعد السبعمائة، وهي السنة التي فرَغَ فيها من تأليف هٰذا المُصنَّف، فيكون من علماء القرن الثامن.

المقصد الثالث: **جمهرة شيوخه**: سبق أن عرفت أن لا ترجمت لهٰذا العلم، فلم يوقف له علىٰ شيخ.

المقصد الرابع: **جمهرة تلاميذه**: والقول فيه كسابقه، لكن وُجدت نسخة من هٰذا الكتاب بخطٍّ أحد تلاميذه هو الحُسين بن عبد الله الطِّيبِي، فاستُفيدَ من هٰذه النسخة معرفة أحد تلاميذه.

المقصد الخامس: **ثبت مصنّفاته**: لم نقف علىٰ مصنفٍ لهٰذا العلم سوىٰ هٰذا الكتاب.

المقصد السادس: **تاريخ وفاته**: لم يَتعيَّن تاريخ وفاته ولا تقدير عمره تبعا لخفاء معالم سيرة حياته رَحِمَهُ اللهُ إلا ما عرفتَ آنفا من أنه أحد أعيان القرن الثامن.

المقدمة الثانية: التعريف بالمصنَّف، وتنتظم في ستة مقاصد أيضا.

المقصد الأول: **تحقيق عنوانه**: صرح المُصَنِّف رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ باسم كتابه في ديباجته، فقال: (وسميته بالمعتمد من المنقول فيما أوحي إلىٰ الرَّسول).

المقصد الثاني: **إثبات نسبته إليه**: تواطَأت النسخ الخطية علىٰ نسبة هٰذا الكتاب إليه، وذكره له حاجّي خليفة في «كشف الظنون».

المقصد الثالث: بيان موضوعه: أشار المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ في ديباجة كتابه أن موضوع هٰذا الكتاب (الأحاديث التي تكشف عن علوم القرآن، كفضائله وآدابه وأسباب نزوله وتفسيره، وغير ذلك).

المقصد الرابع: ذكر رتبته: إن كتاب المعتمد من المنقول أقدم الجوامع المؤلّفة في التفسير بالمأثور، فقد عمَدَ المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ جمع الأحاديث الواردة في الكتب الستة و«موطأ مالك» و«سنن الدارمي» و«مسند أحمد» مع زيادات أخرىٰ مرتبة ترتيبا بديعا سيأتي خبره.

المقصد الخامس: توضيح منهجه: جعل المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ كتابه مرتّبا في ثلاثة أقسام كبار:

فالقسم الأوّل: السوابق والمقدّمات.

والقسم الثَّانِي: المقاصد والمهمَّات.

والقسم الثَّالِث: اللَّواحق والمتمِّمات.

واعتمد في التراجم في التفسير: «صحيحَ البخاري»، واجتهد في عزو الأحاديث إلىٰ مصنفيها، وربما غفل عن شيء من ذلك، وليس له عناية ببيان مراتبها، لكن له نُكَت شريفة ومعانٍ لطيفة بثّها في تراجم هٰذا الكتاب وفي مواضع متفرقة منه تتعلق بالاستنباط والفهم.

المقصد السادس: العناية به: اقتصرت العناية بهٰذا الكتاب علىٰ نشره مرة واحدة في مجلدين، وهي نَشَرة حسنة في الجُملة؛ لكنّها مكدّرة بتصحيفات متفرّقة وإهمالٍ لعلامات الترقيم المعتمدة في البحث العلمي.

البَابُ الأوّلُ
في بَدَء الوَحِي

سبق أن عرفتَ أن المُصَنِّف رَحِمَهُ اللهُ مقتفٍ للبخاري، ومن اقتفائه لأبي عبد الله البُخَاري استفتاحُه كتابَه هٰذا بترجمة تتعلق ببدء الوحي، فإن أبا عبد الله البُخَاري رَحِمَهُ اللهُ ابتدأ كتابه ببدء الوحي.

وقد ذكر أبو العباس ابن تيميّة رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ أن من محاسن تصرّفات بعض الحفاظ التوطئةُ بين يدي جوامعهم بذكر ما يتعلق بتثبيت النبوّة وطرف من السيرة النبوية، كما صنعه أبو عبد الله البُخَاري في «صحيحه» وأبو محمد الدارمي في مُسندِه المعروفِ بـ«السُّنن».

عن البُخَاري ومُسلمٍ وأحمدَ ابن حنبلَ عَن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالَت:

أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، وكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ وُ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاء فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّىٰ جَاءَهُ الْحَقُّ – أو حَتَّىٰ فَجِئَهُ الحقّ – وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاء.(١)

فَجَاءَهُ الْمَلَكُ، فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ. فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ إلىٰ قولُه: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَىٰ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَزَمَّلُوهُ حَتَّىٰ ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ. فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَىٰ نَفْسِي، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: كَلَّا أَبْشِر فوَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتصدُقُ الحدَيث، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ.

فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّىٰ أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلَ وهو ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا، وَكَانَ امْرَأً قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعَرَبِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ.

فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ. فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَىٰ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَىٰ، فَقَالَ لَهُ: وَرَقَةُ هٰذا النَّامُوسُ الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ مُوسَىٰ، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ ؟ قَالَ: نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْراً مُؤَزَّراً، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ.

وفِي رِوَايَة: وَفَتَرَ الْوَحْيُ فَتْرَةً حَتَّىٰ حَزِنَ النَّبِيُّ ﷺ فِيمَا بَلَغَنَا حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا كَيْ يَتَرَدَّىٰ مِنْ رُءُوسِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ، فَكُلَّمَا أَوْفَىٰ بِذِرْوَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِيَ مِنْهُ نَفْسَهُ تَبَدَّىٰ لَهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ

---

(١) قال الشيخ: يعني في جبل غار حراء.

لرَسُولُ اللهِ حَقًّا، فَيَسْكُنُ لِذَلِكَ جَأْشُهُ وَتَقِرُّ نَفْسُهُ، فَيَرْجِعُ فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فَتْرَةُ الْوَحْيِ غَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ فَإِذَا أَوْفَىٰ بِذِرْوَةِ جَبَلٍ تَبَدَّىٰ لَهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ.

وأخرج التِرمذِي طَرفا من أوّله.

أورد المُصَنِّف رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ هنا حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وفيه بيان بدء الوحي إلىٰ النبي ﷺ، وتحقيقه أن ابتداء الوحي علىٰ النبي ﷺ وقع علىٰ منزلتين:

أُولَاهُما: منزلة الرؤيا الصالحة في النوم، فكان النبي ﷺ لا يرىٰ رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، أي وقعت وتحققت.

وثانِيهُما: مجيء الملك إليه ﷺ يقَظَةً في صورته، وهٰذا هو الذي وقع له ﷺ في غار حراء لما نزل عليه الملك بفاتحة سورة العلق، وكأنّ تقْدِمَة الرؤيا الصالحة بين يدي مَجيء الملك، كانت كالتهيئة للنبي ﷺ.

والجملة الأخيرة التي فيها ذكر التردي من شواهِق الجبال التي أوردها المُصَنِّف بقوله: (وفِي رِوَايَة وَفَتَرَ الْوَحْيُ فَتْرَةً حَتَّىٰ حَزِنَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ فِيمَا بَلَغَنَا حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا..) الحديث.

هٰذه الرواية قد وقعت عند البُخاري مُدرجة، وهي مُرسلة من حديث الزهري، و البُخاري رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ لم يقصد تخريجها، لكنّها اندرجت في الحديث كما سمعه فأورده، وإلا فهٰذه الزيادة زيادة ضعيفة، ولا تليق بمقام نبوّة النبي ﷺ، بل كان ﷺ صابرا محتسبا حين فترَ عنه الوحي، ولم يُذكر عنه طلب قتل نفسه ﷺ بالتردّي من شواهق الجبال، وإخراج البُخاري لها إنما كان علىٰ وجه التبع لما سمِع.

عن البخاري ومسلم وأحمد والترمذي:

عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ أَبِي كَثِيرٍ سَأَلْتُ أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَوَّلِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾ قُلْتُ: يَقُولُونَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ فَقَالَ أَبُو سَلَمَةَ: سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنْ ذَلِكَ وَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ الَّذِي قُلْتَ لِي، فَقَالَ: جَابِرٌ لَا أُحَدِّثُكَ إِلَّا مَا حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ.

قَالَ: جَاوَرْتُ بِحِرَاءٍ فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي هَبَطْتُ فَنُودِيتُ فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا وَنَظَرْتُ عَنْ شِمَالِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا وَنَظَرْتُ أَمَامِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا وَنَظَرْتُ خَلْفِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ شَيْئًا فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي، فدّثروني وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا، فَنَزَلَتْ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾﴾.

وذلك قبل أن تفرضَ الصلاة.

وفي رواية فلمّا قضيت جِوَارِي هبطّتُ فاسبطنت الوادي فنوديت فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أر أحدا، ثم نُوديت فرفعت رأسي فإذا هو قاعد علىٰ عرشٍ في الهواء يعني جبريل، فأخذتني رجفة شديدة فأتيت خديجة فقلت: دثّروني دثّروني، فصبّوا علي ماءً، فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾.

وفي رواية فإذا هو قاعد علىٰ العرش بين السماء والأرض، وسنذكر بقيّة الحديث في سورة المدثّر.

أتبعُ المُصَنِّف رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ حديث عائشة الآنفِ الذكر بحديث جابرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وفيه أن جابرا كان يرىٰ أن أوّل ما أنزل هو قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، وهٰذا خلاف مذهب الجمهور.

والصحيح مما عليه الجمهور مما دل عليه حديث عائشة المُقَدَّمُ أولا، أن النبي ﷺ كان أوّل ما أنزل عليه سورة (اقرأ) في فاتحتها، ثم عرض للنبي ﷺ مما عرض، وكان مما عرض له ﷺ بعد ذلك أن الملك عَرَض له في السماء علىٰ كرسي بين السماء والأرض كما جاء في حديث جابر، وأنزلت بعد ذلك سورة المدثّر.

فالتحقيق أن فاتحة سورة العلق أنزلت قبل فاتحة سورة المدثّر، ثم بعد ذلك وقع ما وقع وأنزلت علىٰ النبي ﷺ سورة المدثّر.

ويكون جابرا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أخبر بما وعىٰ وأدرك، والتحقيق الجمع بين حديثين بما ذكرنا بأن يكون حديث عائشة دالا علىٰ أوّل ما أنزل، وحديث جابر دل علىٰ ما أنزل بعد فتور الوحي عنه ﷺ.

عن البُخاري ومسلم والترمذي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن النبي ﷺ أقام بمكة خمس عشرة سنة يسمع الصوت ويرىٰ الضوء ولا يرىٰ شيئا سبع سنين، وثمانَ سنين يُوحىٰ إليه، وأقام بالمدينة عشرا وتوفي وهو ابن خمس وستين سنة.

وفي رواية أنزل علىٰ النبي ﷺ وهو ابن أربعين، فمكث ثلاث عشرة سنة، ثم أمر بالهجرة فهاجر إلىٰ المدينة فمكث بها عشر سنين ثم توفّي.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ههنا من الأحاديث المتعلقة بصفة بدء الوحي: حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه قوله:(أقام بمكة خمس عشرة سنة يسمع الصوت ويرىٰ الضوء) أي يسمع صوت هاتفٍ يهتِف به، ويرىٰ نورا، وهٰذا الهاتف هو الهاتف الملكي لا الهاتف الشيطاني قطعًا، لأن ﷺ قد نبّئ فحُمي ﷺ من هواتف الشياطين، وإنما كان هاتف المَلَك، وكان يرىٰ الضوء أي النور، وهٰذا النور إما نور الملك وإما نورٌ خلقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإما نورُ مخلوقات تعرِض فيريه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذلك.

كالمقابل للباب عن البُخاري ومسلم عن أنس قال: إن الله تابع الوحي علىٰ رسول الله ﷺ قبل وفاته، حتىٰ توفاه الله أكثرَ ما كان الوحي، ثم تُوفّي رسول الله ﷺ بعد.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هٰذا الحديث وختم به باب بدء الوحي، للتعريف بما آل إليه مقام النبي ﷺ من أنّه ترقّىٰ شيئا فشيئا في تلقّي الوحي، إذ بدأ قليلا ثم فترَ عنه وانقطع، ثم عاد إليه، فلم يزل عليه يتكاثر عليه ﷺ لكمال مرتبته من النبوة والرسالة، حتىٰ توفّاه الله أكثرَ ما كان الوحي، فانتقل بعد ذلك ﷺ وانقلب إلي ربه عَزَّوَجَلَّ.

الباب الثاني:

كيفية نزول الوحي وما كان يَحْدُثُ للنبي ﷺ عندَه من الأحوال

عقد المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هٰذا الباب كالمبيّن لابتداء الوحي، فإن الوحي لما ابتدأ للنبي ﷺ ثم استرسل معه، وقع ذلك علىٰ كيفيّات متعددة، ولابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ كلامٌ بسطَ فيها تلك الكيفيّات في صدر «زاد المعاد». وقد ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ جملة من الأحاديث الدّالة علىٰ كيفيّات نزول الوحي علىٰ النبي ﷺ، وما كان يعرض له ﷺ عند ذلك من الأحوال.

عن البُخاري ومسلم ومالك والترمذي والنسائي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: إن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: كيف يأتيك الوحي ؟

فقال رسول الله ﷺ: «أحيانا في مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ فيفصم عنّي وقد وعيت ما قال، وأحيانا يتمثّل لي الملك بشرا فيكلّمني فأعي ما يقول»، قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيُفصَم عنه وإن جبينه ليتفصَّدُ عنه عرَقا.

ذَكَر المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ حديثا اشتمل علىٰ كيفيّتين من كيفيّات نزل الوحي:

أُولاهُما: أن الوحي كان يأتيه ﷺ (مثل صلْصَلَة الجرس) أي مثل صوت الجرس إذا صَلْصَل، وكان هٰذا أشدَّه علىٰ النبي ﷺ، (فيَفصِم عنه) أي فينفصِل عنه وقد وعىٰ ﷺ ما قال.

والأخرىٰ: أنه يتمثّل له الملك رجلا فيكلّمه، فيعي ﷺ منه ما يقول.

وهاتان الكيفيّتان تابعتان لما سبق في حديث عائشة، فإن حديث عائشة الأول فيه ذِكر إتيانه بالرؤيا الصالحة، ثم ذكر إتيانه بالصورة الملكية، وفي هٰذا الحديث ذكر إتيانه بالصلصلة، وذكر إتيانه بالصفة البشريّة، فيتمثّل المَلك بصورة الرجل، فانتظم في هذين الحديثين عن عائشة أربعة كيفيّات من كيفيّات الوحي:

أولها: الرؤيا الصالحة.

وثانيها: الصورة الملكية الحقيقة.

وثالثها: صلصلة الجرس.

ورابعها: الصورة الملكية المتمثّلة برجل، أي الصورة البشريّة.

وكان يَلْحقه ﷺ من الوحي شدّة، كما حدّثت عائشة عن ذلك، فذكرت أن من شدّته أنه كان يَعْرَق ﷺ عرقا شديدًا حتىٰ في اليوم شديد البرد.

عن البُخاري ومسلم و النَّسَائِي، عَن يَعلىٰ بن أَمَيَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَان يقولُ لعُمرَ: ليتُني أرَىٰ رسول الله ﷺ حينَ ينزلُ عليه الوحْي، فلمَّا كان النبَّي ﷺ بالجِعرَانَةِ وعليه ثوبٌ قد أُظِلّ به عليه، ومعه ناس من أصحابه فيهم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إذ جاءه رجل متضمّخ بطيب فقال: يا رسول الله: كيف ترىٰ في رجلٍ أحرَم في جبّة بعدما تضمّخ بطيب ؟

فنظر النبي ﷺ ساعة، ثم سكت فجاءه الوحي، فأشار عمر إلىٰ يَعلىٰ أن تعال فجاء يَعلىٰ فادخل رأسه فإذا هو محمَرّ الوجهِ يغط لذلك ساعة ثم سُرِّيَ عنه، فقال: أين الذي سألني عن العمرة آنفا ؟ فالتمس الرجل فجيء به إلىٰ النبي ﷺ، فقال: أما الطيب الذي بك فاغسله ثلاث مرات، وأما الجبة فانزعها ثم اصنع في عمرتك كما تصنع في حجّك.

والحديث إنما اختص بهؤلاء الثلاثة للزيادة في أوّله، وما ذكره الراوي من حديث الوحي.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هاهنا حديث يعلىٰ بن أمية، وفيه مما يتعلق بالباب من الحال التي تعرِض للنبي ﷺ عند الوحي، أنه كان يحمَرّ وجهه ويغُطّ ﷺ غطيطًا شديدا من الشدّة التي تلحق به.

عن الترمذي عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان رسول الله ﷺ إذا نزّل عليه الوحي يُسمع عند وجهه كدويّ النحل، الحديث مذكور في أوّل ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾.

عن مسلم عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان نبي الله ﷺ إذا أُنزِل عليه كُرِبَ لذلك وتربّد له وجهه.

وفي رواية كان إذا نُزِل عليه الوحي نكّس رأسه ونكّس أصحابه رؤوسهم، فإذا أبَلَّ عنه رفع رأسه ورفعوا.

والحديث مذكور في أوائل سورة النساء.

وروي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان إذا جاء الوحي لا يخفىٰ علينا، فإذا جاء ليس أحد يرفع طَرْفَه إلىٰ رسول الله ﷺ حتىٰ ينقضيَ الوحي.

البُخاري و مسلم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾[القيامة] قال: كان النبي ﷺ يُعالج من التنزيل شدّة وكان مما يحرّك به شفتيه.

الحديث مذكور في سورة القيامة.

عن أحمد بن حنبل عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: إن كان ليُوحىٰ إلىٰ رسول الله ﷺ وهو علىٰ راحلته فيضربُ بجيرَانِها.

ذَكَر المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هاهنا أحاديثَ تلحقُ بما سبقها في وصف الأحوال التي كانت تعرض للنبي ﷺ عند نزول الوحي عليه، ومجموع ما دلت عليه هٰذه الأحاديث ستة أمور:

أولها: عَرَقُه الشديد ﷺ.

وثانيها: احمرار وجهه.

وثالثها: غَطيطُه ﷺ بصوته.

ورابِعُها: تَربُّدُ وجهه وتغيّره.

وخامِسُها: تنكِيسُ رأسِه.

وسادِسُها: تحريكُ شَفَتيهِ.

ومعنىٰ قوله في الحديث الأخير: (وهو علىٰ راحلته فيضربُ بجيرَانِها) أي يقع ﷺ من شدّة الوحي عليه علىٰ عُنُق راحِلته التي يَركَبُهَا.

البابُ الثالثُ:

في نُزول السّكينةِ والمَلائكةِ عِندَ قِراءةِ القُرآن

عقد المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هٰذا الباب المُنْبِئ عن فضيلة من فضائل القرآن، وهو تنزّل السكينة والملائكة عند قراءة القرآن.

وقد اختلف أهل العلم رحمَهُم اللهُ تعالىٰ في تفسير السكينة النازلة عند قراءة القُرآن التي تغْشَىٰ أهلَه، وانتظم فيها قصّة أسيد بن حضير التي سيوردها المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ علىٰ أقوالٍ أحسنها: **أن السكينة المراد بها السَّكون والطمأنينة التي ينثلِج بها القلب وتَرتَاح النَّفس،** ذَكَر هٰذا المعنىٰ عطاء بن رباح واختاره ابن جرير في «تفسيره»، والمُلا علي القاري في «شرح المِشكَاة».

فإن قيل: يُشكل علىٰ هٰذا القول أنه صح عن علي عند ابن جرير وغيره أنه قال: (السّكينة ريح هفَّافَة لها وجهٌ كوجه الإنسان) ومعلوم مقدار تفسير الصحابي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ولا سيّما إذا كان مثل علي، وقد اختار هٰذا القول ابن حجر في «فتح الباري»، فما الجواب ؟

الجواب: أن يقال: إن وضع اللفظ -أي لفظ السكينة- في لسان العرب يدل علىٰ المعنىٰ الذي ذكره عطاء، ويكون من الأفراد التي تندرج في هٰذا مُسبّبةً للطمأنينة الرّيح الهفّافَة، ويكون من الأمور المُندَرِجة في هٰذا المُسببة للسَّكينة الرّيحُ الهفّافَة.

مثال: الآن نحن في المسجد لو إنسان شعر بحرّ، فأنزل الشّماغ والطاقية وفتح أزراره وفتح النافذة، وجاء الهواء، فيشعر ببرَاد، إذا قُلنا هٰذا البَراد من الريّح ؛ هل الريّح هي السبب الوحيد أم هناك أسباب أخرىٰ ؟

هناك أسباب أخرىٰ كفتح الأزرار ونزع الشمّاغ وإنزال الطاقية.

لكن عندما نقول تبرّد بسبب الهواء نكون قد ذكرنا واحدا من الأفراد التي أوجبت التبرّد، فكذلك إذا قيل السكينة هي الريح الهفّافة أخبرنا عن واحد من الأسباب التي تُوصِل إلىٰ السكينة، فحيئذ فلا اختلاف بين ما رجّحناه مما دلّت عليه سِعَة اللغة وبين ما صحّ عن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

عن البُخاري و مسلم عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن أسيد بن حضير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بينما هو ليلة يقرأ في مِربَدِه، إذ جالت فرسه فقرأ ثم جالت أخرىٰ فقرأ ثم جالت أيضا، قال أسيد: فخشيت أن تطأ يحيى، فقمت إليها فإذا مثل الظُلّة فوقَ رأسي فيها أمثَال السُّرُج عرَجَت في الجوّ حتىٰ ما أراها، قال: فغدوت علىٰ رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله بينما أنا البارحة من جوف الليل اقرأ في مِرْبَدِي[1] إذ جالت فرسي، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ ابنِ حُضير»، قال: فقرأت فجالت أيضا: فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ ابنِ حُضير»،قال: فانصرفت وكان يحيىٰ قريبا منها خشيتُ أن تطأه فرأيت مثل الظُّلّة عُرجَت في الجوّ حتىٰ ما أراها، فقال رسول الله ﷺ: «تلك الملائكة كانت تسمع لك ولو قرأت لأَصْبَحَتْ يراها الناس لا تستر منهم». وسنذكر في فضل سورة البقرة نحوًا منه.

عن البُخاري ومسلم والترمذي عن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوطَةٌ بِشَطَنَين، فغشيَتْهُ سحابة فجلعت تدنو وجعلت فرسه تنفر منها، فلما أصبح أتىٰ النبي ﷺ فذكر له ذلك فقال: «تلك السكينة تنزّلت للقرآن ».

وفي رواية: «اقرأ فلان فإنها السكينة تنزلت عند القرآن أو للقرآن ».

وعلىٰ هٰذا بهاتين الروايتين ذهب بعض من ذهب من العلماء ومنهم ابن حجر في موضع من «فتح الباري» خلافا لموضع آخر، أن السكينة هي الملائكة، لقوله في الرّواية الأولىٰ: «تلك الملائكة كانت تَسمع لك» وفي الرواية الأخرىٰ «تلك السكينة تنزلت للقرآن» والصحيح أن الراوي في كل جملة من الخبرين أخبر عن شيء، فقد تنزّلت الملائكة وتنزلت السكينة، ونزول الملائكة شيء ونزول السكينة شيء، ويدل علىٰ هٰذا حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» وفيه النبي ﷺ قال: «ما اجتمع قومٌ بيت في بيوت من بيوت كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفّتهم الملائكة» فدلت هٰذه الجمل الثلاث علىٰ تغاير كل واحدة عن الأخرىٰ، فالسكينة شيء والملائكة شيء آخر.

ولذلك عبّر في الملائكة بالحَفِّ أنّهم يَحُفّون، وعبّر عن السّكينة بالنّزول، ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الفتح:٤]، في آي أخَرْ في هٰذا المعنىٰ، فالسكينة تُنزّل إنزالا.

---

(١) قال الشيخ: المِربَدُ مكان جمع التمر

الباب الرابع:

في عرْضِ رسول الله ﷺ القرآنَ على جبريل عليه السلام

وظهورَ جبريل لبعض الناس عند نزوله.

ذَكَر المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هاهنا بابا في عرْض الرسول ﷺ القرآن علىٰ جبريل، وأن النبي ﷺ أخذ القرآن بالتلقي عن جبريل، فكان جبريل يقرؤه، ثم يقرؤه النبي ﷺ بعدَه.

وكان هٰذا بعد أن نُهي النبي ﷺ عن تحريك شَفَتيه بمتابعة القرآن إذا نزل خشية أن يذهب منه، فقيل للنبي ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾[القيامة]، فكان النبي ﷺ يتلقّاه من جبريل بعد أن يقرأه جبريل.

ثم كان النبي ﷺ يُعارِضُ جبريل بالقرآن، ومما وقع من معارضته ﷺ له أنه كان يُدارسُه القرآن، وعرضه النبي ﷺ عليه كل عامٍ مرّة، فلما كان في العام الذي قُبض فيه عرضه عليه مرّتين صلوات الله وسلامه عليه.

وهٰذا يدل علىٰ أنّ أرفَعَ مقام تعليم القرآن أن يُجمعَ بين شيئين اثنين:

أحدهما: الإلقاء إلىٰ المُتعلّم.

والثاني: عرضُ المتعلم علىٰ المعلم.

وكان هٰذا دأْبُ المسلمين فيما سبق، فكان المعلم يُلقي ما يريد المتعلم أن يَحْفَظَه فإذا أتقن قراءته وحفظَه عاد مرّة أخرىٰ فعَرَضه عليه.

عن البُخاري ومسلم والنسائي وأحمد ابن حنبل عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل عليه السلام، وكان يلقاه جبريل في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فإن رسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة.

وفي رواية نحوه قال: وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة من رمضان حتىٰ ينسلخ يعرض عليه النبي ﷺ القرآن.

عن البُخاري وابن ماجه القَزويني عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان يُعرض علىٰ النَّبي ﷺ القرآن كل عام مرّة، فعرض عليه مرّتين في العام الذي قُبِضَ فيه.

عن البُخاري و مسلم عن أبي عثمان النَّهْدِي قال: أُنبئت أن جبريل عليه السلام أتىٰ النبي ﷺ وعنده أم سلمة، فجعل يتحدّث فقال النبي ﷺ لأم سلمة: «من هٰذا ؟» أو كما قال، قالت: هٰذا دِحيَة، قال فقالت أم سلمة: أيمُ الله ما حسبتُه إلّا إياه حتىٰ سمعت خطبة النبي ﷺ يخبر خبر جبريل أو كما قال.

وروي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: دخلت مع أبي علىٰ رسول الله ﷺ فلما لم يأذن لنا فانصرفنا، فقال لي أبي: ألا ترىٰ كيف لم يؤذن لنا ؟ فقلت لعله كان في سر مع الذي يناجيه، فقال: أو كان معه أحد ؟ فقلت:نعم، قال: ذاك الذي شغله. فأخبرت رسول الله ﷺ، فقال لي: أنت رأيته ؟ أو كما قال، قلت: نعم، قال: «ذاك جبريل» وذكر الحديث.

وظهوره عليه السلام لجماعة من الصحابة في حديث عمر وأبي ذر وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، إلىٰ آخره مشهور.

والحديث من رواية أبي هريرة في آخر لقمان مذكور عنه.

وعن أحمد ابن حنبل عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن جبريل عليه السلام أتىٰ النبي ﷺ علىٰ بِرذَون وعليه عِمَامة طرفها بين كَتِفَيه، فسألت النبي ﷺ فقال: رأيته ذاك جبريل عليه السلام. والله أعلم.

وعن البُخاري عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت مع النبي ﷺ قال: «مكانك » وتقدم غير بعيد، فسمعت صوتا فأردت أن آتيه فتذكّرت قوله مكانك حتىٰ آتيك، فلما جاء، قلت يا رسول الله: ما الذي سمعت ؟ أو قال: الصوتَ الذي سمعت، قال: «وهل سمِعتَ ؟ »، قلت: نعم. قال: «أتاني جبريل فقال: من مات من أمتك لا يُشرك بالله شيئا دخل الجنة، قلت وإن فعل كذا وكذا ؟، قال: نعم ».

ذَكَر المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ جملة من الأحاديث المُصدِّقة للجملة الثانية من تبويبه إذ قال: (وظهور جبريلَ لبعض الناس عند نزوله) فإن من أصحاب النبي ﷺ من ظهر لهم جبريل عليه الصلاة والسلام. وظهور جبريل لغير النبي ﷺ لم يقع في الصورة المَلكيّة أبدا، وإنما وقع في الصورة البشرية، وتبدّي

جبريل عليه الصلاة والسلام لغير النبي ﷺ في الصورة البشرية تارة يتمثّل في سورة دِحْيَة الكَلبِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتارة يتمثّل في صورة رجل لا يُعرف، كما وقع في قصّة مجيئه إلىٰ النبي ﷺ في حديث عمر وأبي ذر وأبي هريرة (بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب) الحديث، فإن كان في صورة بشرية لرجل لا يعرفه أحد.

والأحاديث التي أوردها المُصَنِّف أحاديثَ ثابتة سوىٰ حديث عائشة عند أحمد (أن جبريل أتىٰ النبي ﷺ علىٰ بِرذون وعليه عِمَامة إلىٰ آخره) فإن إسناده ضعيف. والبرذون هي الخيل غير الأصيلة.

وحديث ابن عباس الذي قال فيه المُصَنِّف: (وروي عن ابن عباس قال دخلت مع أبي، إلىٰ آخره) هٰذا الحديث رواه أحمد، وهو أحد الأصول التي استمدّ منها المُصَنِّف هٰذه الأحاديث، وقد اعتذر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في مقدمة كتابه أن قد يغفل عن تعليق من خرّج الحديث فلْيُحَق به.

الباب الخامس:

في أنّ القرآن ليس بمخلوق.

بوّب المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هٰذا الباب المُبيِّن لما يجب اعتقاده في القرآن الكريم، وأن القرآن ليس بمخلوق؛ بل هو صفة من صفات ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وذكر فيه كلام البَغوي في «شرح السنة»، وسبق تقرير هٰذه الجملة غير مرّة في دروس المعتقد.

والباب كلُّه من «شرح السنة»، قال محيي السنة: قد مضىٰ سلف هٰذه الأمة وعلماء السنة علىٰ أن القرآن كلام الله ووحيه، ليس بخالق ولا بمخلوق، والقول بخلق القرآن ضلالة وبدعة لم يتكلم بها أحد في عهد الصحابة والتابعين، وأول من تكلم به وخالف الجماعة الجَعْدُ بن دِرْهَم، فقتله خالد بن عبد الله القَسْرِيُّ بذلك، وكان الجهم بن صفوان صاحب الجهمية أخذ هٰذا الكلام من الجعد بن درهم.

وقال سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار: سمعت مشيخَتنَا منذ سبعين سنة يقولون: القُرآن كلام الله ليس بمخلوق.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قول تعالىٰ: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾[الزمر:٢٨] قال: غيرَ مخلوق.

وعن عكرمة قال: صلىٰ ابن عباس علىٰ جنازة، فقال رجل من القوم: اللّٰهمَّ ربّ القُرآن العظيم اغفر له، فقال ابن عباس: لم تقل مثل هٰذا، إن القرآنَ منه وإليه يعود.

وعن جعفر بن محمد الصادق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه سئل عن القرآن فقال: أقول فيه ما يقول أبي وجدي، ليس بخالق ولا بمخلوق ولكنه كلام الله.

وقال رجل لمالك: ما تقول لمن يقول القرآن مخلوق؟ فقال: عندي كافر فاقتلوه.

وكذا عند ابن المبارك والليث بن سعد وابن عيينة في جماعة.

وقيل لعبد الرحمن بن مهدي: إن الجهمية يقولون إن القرآن مخلوق، فقال: إن الجهمية أرادوا أن ينفوا أن يكون الرَّحمٰن علىٰ العرش استوىٰ، وأرادوا أن ينفوا أن يكون الله كلّم موسىٰ تكليما، وأرادوا أن ينفُوا أن يكون القرآن كلام الله، أرىٰ أن يستتابوا، فإن تابوا وإلا ضُربت أعناقهم.

ولمّا كَلم الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حفصَ الفردَ فقال حفص: القرآن مخلوق، فقال له الشافعي: كفرت بالله تعالىٰ.

ذَكَر المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هاهنا كلاما منقولا من «شرح السنة» للبَغوي، فيه بيان ما يجب اعتقاده في القرآن الكريم، وزاد علىٰ ما في الترجمة من ذكر أن القرآن ليس بمخلوق، ما جاء ذكره في قول ابن عباس: منه بدأ وإليه يعود، وهٰذه الجملة تقع عند أهل السنة علىٰ معانٍ أقواها القولُ أن معنىٰ (منه بدأ): أي تكلم به حقيقة، ومعنىٰ (إليه يعود): أن إليه يرجع في آخر الزمان فيرفع من الصدور والسطور.

والأثر الذي أورده عن ابن عباس رواه اللالكائي وغيره وفي إسناده ضعف، وإنما وقع إنكار هٰذه

المقالة: (رب القرآن العظيم) لئلا يتوهّم أن القرآن مربوب مخلوق، فإن الأصل في إطلاق اسم الرب أن يكون من عُلّق به مَربُوبا كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ فمعنىٰ العالمين أي: ربهم الذي خلقهم وغذّاهم وأنعم عليهم.

ولا يُشكل علىٰ هٰذا التقرير آيةٌ في القرآن إلا قوله تعالىٰ: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ ﴾ [الصافات] فإن العزّه هاهنا علىٰ الصحيح هي صفة الله ﷻ، وإذا قيل إن العزة في هٰذه الآية هي صفة الله ﷻ، ربما أوهمَ ذلك أن تكون تلك الصفة مخلوقة لما تقرر أن ذكر الرب يكون متعلقه بمربوب مخلوق، لكن هٰذا المحل علىٰ الصحيح من أقوال المفسرين، كما قال مقاتل بن سليمان: أنه بمعنىٰ صاحب، فتكون الآية ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ﴾ أي صاحب العزة، أي المتصف بها، فلا تكون حينئذ مخلوقة وتكون من جنس المستثنىٰ من هٰذا الأصل في ذكر الربوبية.

خاتمة

في أنّ القرآن لا يغسله الماء.

عن مسلم، عن عياضِ بن حمار المُجَاشِعي أنّ رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبتنا: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هٰذا، كلّ مالٍ نحَلْتُه عبدا حلالٌ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وأنّهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرّمت عليهم ما أحللتُ له، وأمرتهم أن يشركوا بهما مالم أنزّل به سلطانا، وأنّ الله نظر إلىٰ أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليَ بك وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء، تقرؤه نائما ويقظان، وإن الله أمرني أن أحرق قريشا، فقلت: ربي إذن يَثْلَغُوا رأسي فيَدعُه خُبزا، قال: استخرجهم كما أخرجوك واغزهم نُغْزِك[1] وأنفق فسننفق عليك وابعث جيشا نبعث خَمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك». الحديث.

وأخرجه أحمد ابن حنبل عنه.

ذَكَر المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هٰذا الحديث شاهدا لما قرره في الخاتمة أن القرآن لا يغسِله الماء، لقوله تعالىٰ في الحديث القدسي هٰذا: «وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء» ومعنىٰ قوله: (لا يغسله الماء) أي لا يذهب، لأنه لو تُصُوّر أن القُرآن يُكتب في صحفٍ وأَديم ثم يُغسل بالماء، فإنه وإن ذهبت صورته علىٰ الجلد إلا أنه باقٍ في صدور الخلق، فالمراد بهٰذا التنبيه علىٰ أن القرآن محفوظ لا يؤثِّر فيه ذهاب نُسخِه بأثرٍ من الآثار، كغسل الصحف التي هو فيها بالماء، فالمراد بهٰذا الحديث تقرير حفظ القرآن، قد ذكر هٰذا أبو بكر بن الأنباري، ثم تبعه النووي والسيوطي وغيرهما.

---

(١) قال الشيخ: يعني نعينك علىٰ غَزاتهم.

الباب السادس

في فضائل القرآن

عقد المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هٰذه الترجمة لبيان طرفا من مزايا وخصائص القرآن، فإن **الفضيلة هي المزيّة التي تكون للشيء**، وفضائل القُرآن نوعان اثنان:

النوع الأوّل: الفضائل الإجماليّة، وهي المتعلقة بالقرآن كلِّه.

والثاني: الفضائل التفصيلية، وهي المتعلقة بأفراد القرآن من السور والآي.

ومراد المُصَنِّف ههنا هو النوع الأول، أما النوع الثاني المتعلق بالسّور والآي، فقد بثّه المُصَنِّف في مواضعِه من كتابه.

عن البُخاري و مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «ما من نبي إلا أعطي من الآيات ما مثلُهُ آمنَ عليه البَشَر، وإنما كان الذي أوتيتُه وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرَهم تابعا يوم القيامة».

قوله: «إلا أعطي من الآيات ما مثلُهُ آمنَ عليه البَشَر» أي أعطي من دَلائل النبوّة ما يؤمن بسببه البشر.

وقوله: «وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي» يعني القرآن الكريم ،وغَلَبَةُ هٰذه الآية علىٰ غيرها شاهدها: رجاؤه ﷺ أن يكونَ أكثرَهم تابعا يوم القيامة، وليس المراد بأكثريّة التَّبع مجرّد العدد الذي تشملُه دعوته، وإنما المراد أن أتباعه هم أكثرُ أهل الجنة، فإنَّ التبعَ الممدوح إنَّما يكون إذا حصل الفوز بالمقصود وهو دخول الجنة، وسبق ذكر الأحاديث الدَّالة علىٰ ذلك في إقراء الفصول التي سبقت من كتاب «حادي الأرواح» من برنامج **منتخب الأبواب والفصول الأول**.

عن مسلم وأحمد و الترمذي وابن ماجه عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرّ الأمور مُحدّثاتُها وكلّ بدعة ضلالة».

قوله في هٰذا الحديث: «فإن خير الحديث كتاب الله» هو الشاهد علىٰ الترجمة، فإنَّ من فَضِيلة القرآن، أنه خير الكلام علىٰ الإطلاق.

وعن البُخاري و مسلم وابن ماجه و الترمذي عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «لا حسد إلا علىٰ اثنتين: رجل آتاه الله القُرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالًا فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار».

ذَكَر المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هنا حديثا آخر في فضيلة القرآن، وهو قوله ﷺ: «لا حسد إلا علىٰ اثنتين»، والشاهد فيه: «رجل آتاه الله القُرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار» ووجه المحمَدَة فيه: قوله ﷺ «لا حسد إلا علىٰ اثنتين» فإن الحسد هنا هو حسد الغِبْطة فيكون تقدير معنىٰ الحديث، لا حسد يُحمد إلا في هاتين الاثنتين، كما ذكر ذلك جماعة من أهل العلم كأبي العباس ابن تيمية والنووي وابن القيم.. في آخرين، وهٰذا الحسد يقال له حسد الغِبطة، وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في «بدائع الفوائد» أن الحسد ينقسم إلىٰ ثلاثة أنواع:

أولها: تمنّي زوالِ النعمة الموجودة عن غيره.

والثاني: تمنّي عدمِ حصول النعمة المفقودة لغيره.

والفرق بينهما أن الأول تكون النعمة فيه موجودة ، كأن يكون غينا فيتمنّىٰ أن يزول عنه غناه، وفي الثاني أن النعمة مفقودة كأن يكون فقيرا فيتمنّىٰ ألا يحصل إليه غنىٰ أبدا.

والثالث: حسد الغِبطة، وهو ألا يتمنّىٰ زوال النعمة عن غيره بل يتمنّىٰ لنفسه مثلها، وهٰذا شبيه بالمنافسة كما قال ابن القيم.

عن الترمذي والدارمي عن الحارث الأعور قال: مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث فدخلت علىٰ علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأخبرته، فقال: أو قد فعلوا ؟ فقلت: نعم. قال أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ألا إنها ستكون فتنة» قلت: فما المخرج منها يا رسول الله ؟، قال: « كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغىٰ الهدىٰ في غيره أضلّه الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا يزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلَقُ عن كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجِنّة إذ سمعته حتىٰ قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾[الجن]، من قال به صدق، ومن عمل به أُجِر ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدي إلىٰ صراط مستقيم».

أورد المُصَنِّف هاهنا حديث علي المشهور، وهو حديث قد رُوي مرفوعا وموقوفا ولا يصح، والوَقف أشبه كما قال ابن كثير، وما انتظم فيه من نُعوتِ القُرآن تدل عليه آيات وأحاديثُ كثيرة.

عن مسلم و الترمذي والدارمي عن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أحدهم أعظم من الآخر وهو كتاب الله، حبل ممدود من السماء إلىٰ الأرض، وعِتْرَتِي أهل بيتي لن يفترقا حتىٰ يرد علي الحوض، فانظروا كيف تخلُفوني بينهما ».

وفي رواية مسلم : « ألا أيها الناس إن بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، فإني تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدىٰ والنور، فخذوا بكتاب ربي واستمسكوا به، فحثّ علىٰ كتاب الله ورغّب فيه، ثم قال: وأهل بيتي أذكّركم الله في أهل بيتي، أذكّركم الله في أهل البيت ».

وفي رواية: « كتاب الله في الهدىٰ والنور، من استمسك به وأخذ به كان علىٰ الهدىٰ، ومن أخطأه ضل».

وفي أخرىٰ: «كتاب الله هو حبله من اتبعه كان علىٰ الهدىٰ،ومن تركه كان علىٰ ضلالة ».

ورواية الدّارمي كالأولىٰ لمسلم والحديث هو حديث خطبته ﷺ بماء خم بطوله.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هٰذا الحديث وفي فضيلتان من فضائل القرآن:

إحداهما: أنه حبل الله الممدود من السماء إلىٰ الأرض، فهو صلة بين الخالق والمخلوق.

وثانيهما: الوقاية من الضلال لمن تبعه، فمن تبع القُرآن كان علىٰ الهدىٰ، وكان اتباعه له وَاقيا من الضلالة والرَّدىٰ.

عن الترمذي عن أبي أُمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما آذن الله للعبد في شيء أفضل من ركعتين يصلّيهما، وإن البرّ ليذرّ علىٰ رأس العبد ما دام في مصلّاه، وما تقرّب العباد إلىٰ الله بمثل ما أخرجَ منه »، قال أبو النضر : يعني القرآن من بدَاةُ الأمرُ به وإليه يرجِع الحُكُم فيه.

وروي «ما أذن الله لشيء ما أذن لعبد يقرأ القرآن في جوف الليل، وإن البرّ ليُذر علىٰ رأس العبد ما دام في مصلّاه » [1].

عن الدارمي عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «القرآن أحب إلىٰ الله من السَّمٰوات والأرض ومن فيهنّ ».

وعنه عن عطية عن النبي ﷺ قال: «ما من كلام أعظم عند الله من كلامه، وما ردد العِباد إلىٰ الله كلاما أحب إليه من كلامه».

وعنه عن عُقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «لو جُعل القُرآن في إيهابٍ ثم ألقي في النّار ما احترق».

هٰذه الأحاديث الثلاثة هي ضعيفة كالحديث المتقدم بين أيديها، فهٰذه أحاديث أربعة علىٰ نسق واحد كلُّها أحاديث ضعاف.

وقوله في الحديث الأخير: «لو جُعل القُرآن إيهابٍ ثم ألقي في النّار ما احترق » هو بمعنىٰ حديث «لا يغسله الماء» فالمراد بذلك الإشارة إلىٰ بقائه محفوظا فلو قدّر أنه كان في إيهاب – أي جلد – ثم ألقي في النار، فإنّه وإن ذهبت صورة ذلك الجلد لكنّ القرآن باقٍ في نفوس حفّاظه فكأنه لم يحترق.

(١) قال الشيخ: وفي هٰذا الحديث ضعف.

عنه عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إن هٰذا القرآن مَأدُبَةُ الله فخذوا منه ما استطعتم فإني لا أعلم شيئا أصغر من خيرٍ من بيتٍ ليس فيه من كتاب من شيء، وإن القلب ليس فيه من كتاب الله شيء خربٍ كخراب البيت الذي لا ساكن له).

وقال أيضا: (السّبْعُ الطُّول مثل التوراة والمئين مثل الإنجيل والمثاني مثل الزّبور، وسائر القرآن فضل).

وروىٰ الفصل الأخير أحمد بن حنبل عن واثِلة بن الأصقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أما حديث واثِلة فإنه حديث ضعيف، وفيه اختلاف عن لفظ حديث ابن مسعود، وأما الأثر الذي أورده المُصَنِّف موقوفا عن ابن مسعود فإسناده صحيح.

ومعنىٰ قوله: (إن هٰذا القرآن مأدُبَةُ الله) أي مَدْعَاةُ الله، لأن المأدبة هي ما يُجمع إليه الناس ويدعَونَ إليه، ومنه تسمية الطعام مَأدُبَة لأن الناس يُدعَون إليه.

والمُراد بالمثاني في قوله: (والمثاني مثل الزّبور) يعني السور التي بعد المِائين التي تكررت فيها القصص والأخبار، فهي بمنزلة الزّبور، وإسناده صحيح عن ابن مسعود.

وقال أيضا: إن هٰذا القرآن مأدُبة الله فمن دخل فيه فهو آمن. [١]

وعنه[٢] عن كعب عليكم بالقرآن فإنه فهم العقل ونور الحكمة وينابيع العلم وأحدث الكتب بالرحمن عهدا.

وقال في التوراة: (يا محمد إني منزّلٌ عليك توراة حديثة تفتح بها أعينًا عُميا وآذانا صمّا وقلوبا غُلفا.)

عنه عن ثابت بن عجلان الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان يقال: إن الله ليريد العذاب بأهل الأرض فإذا سمع تعلم الصبيان الحكمة صرف ذلك عنهم. قال مروان: يعني بالحكمة القرآن. [٣].

عنه عن قتادة: اعمروا به قلوبكم واعمروا به بيوتكم، يعني القرآن.

عنه: كان عكرمة بن أبي جهل يضع المصحف علىٰ وجه ويقول: كتاب ربي، كتاب ربي.

وفي «شرح السنة» عن عبد الرَّحمٰن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة تحت العرش يوم القيامة: القرآن يحاج للعباد له ظهر وبطن، والأمانة والرحم تنادي ألا من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله».

ورُوي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: جمَعَ الله في هٰذا الكتاب علم الأولين وعلم الآخرين، وعلم ما كان وعلم ما يكون والعلم بالخالق جل جلاله وأمرِه وخلقِه.

هؤلاء الآثار التي أوردها المُصَنِّف ابتداء من أثر كعب وانتهاء بأثر ابن عباس كلها ضعاف الأسانيد، ومن أشهرها أثر عكرمة أنه كان يضع المصحف علىٰ وجه ويقول: كتاب ربي كتاب ربي، وقد صحح إسناده النووي في «التبيان» إلا أنّ إسناده منقطع.

ولا يصح من هٰذه الآثار إلا أثر قتادة (اعمُروا به قلوبكم واعمروا به بيوتكم يعني القرآن) فإن إسناده لا بأس به، وفيه الإرشاد إلىٰ فضيلة القرآن وأنه عَمَارٌ لقلب صاحبه وبيته، فمن حفظ القرآن عُمِرَ قلبه به، ومن أكثر من قراءة القرآن في بيته عُمِرَ بيته به، وما عمر قلب ولا بيت بشيء أعظمَ من كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وسيأتي في كلام أبي هريرة ما يدل علىٰ فضيلة ذلك في البيوت.

---

(١) قال الشيخ: وإسناده صحيح عن ابن مسعود.

(٢) قال الشيخ: عنه يعني عن الدارمي

(٣) قال الشيخ: هٰذا التفسير سقط منه في هٰذه النسخة (قال مروان) قبل قوله: (يعني بالحكمة)، ومروان هو ابن محمد شيخ الدارمي، فزيدوا كما في سنن الدارمي (قال مروان: يعني بالحكمة القرآن).

عن البُخاري ومسلم والنسائي عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسـول الله ﷺ قـال: «بُعثـت بجوامـع الكلـم، ونُصرت بالرعب، وبينما أنا نائم رأيتُني أتيت بمفاتيحَ خزائن الأرض فوضعت في يدي ».

قوله ﷺ «بُعثت بجوامع الكلم »، جوامع الكلم التي بعث بها النبي ﷺ نوعان اثنان:

أحدهما: القرآن الكريم.

وثانيهما: الكلام الموجَز الذي أوتيه النبي ﷺ، مما يجمع المعانيَ الكثيرة.

أشار إلي هذين النوعين الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم».

والشاهد من هٰذه الجملة علىٰ فضيلة القرآن كونه كلاما جامعا.

عن الدارمي عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: (يجيء القرآن يوم القيامة فيشفع لصاحبه فيكن قائدا له إلىٰ الجنة، ويشهد عليه فيكون قائدا له إلىٰ النار).

وقال أيضا: (وليس من مؤَدِّب إلا وهو يحبُّ أن يؤتىٰ أدبُه وإن أدب الله القرآن).

وعنه قال أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (إن البيت ليتسع علىٰ أهله ويحضره الملائكة ويهجره الشيطان ويكثر خيره أن يقرأ فيه القرآن، وإن البيت ليضيق علىٰ أهله ويهجره الملائكة ويحضره الشيطان ويقل خيره ألا يقرأ فيه القرآن).

وعنه قال أبو موسىٰ: (إن هٰذا القرآن كائن لكم أجرا وكائن لكم وزرا وكائن لكم ذكرا اتبعوا القرآن ولا يتّبعكم القرآن فإنه من يتّبع القرآن يهبط به في رياض الجنّة، ومن اتبعه القرآن يـزُجُّ في قفاه فيقذفِهُ في جهنم).

أورد المُصَنِّف رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ بعد الحديث آثارا عن جماعة من الصحابة هي آثار ثابتة عنهم، وفيها من بيان فضيلة القرآن ما ذكره في أثر ابن مسعود الأول أنه يكون شافعا لصاحبه وقائدا إلىٰ الجنّة.

وفيها أيضا: ما ذكره أبو هريرة أن (البيت ليتسع علىٰ أهله ويحضره الملائكة ويهجره الشيطان ويَكثُر خيره أن يقرأ فيه القرآن)، فمن آثار قراءة القرآن في البيوت أن تتسع علىٰ أهلِها وأن تحضُرَها الملائكة وتهجرها الشياطين ويكثُرَ فيها الخير، وعكس ذلك بضدّه فيضيق البيت بأهله وتهجره الملائكة وتحضره الشياطين ويقل خيره إذا لم يُقرأ فيه القرآن.

ويُعلم بهٰذا أن الأسباب المعنوية لها أثر في الأحوال الحِسّية، فالسبب المعنوي هنا قراءة القرآن في البيت له أثر باتّساعه علىٰ أهله وحضور الملائكة وهُجران الشياطين له وكثرة الخير، كما أن ضد ذلك بضدّه فإذا تُرك قراءة القرآن في البيت ضاق بأهله وهجرته الملائكة وحضرته الشياطين وقلّ خيره، وهٰذا يدل علىٰ فضيلة قراءة القرآن في البيوت.

والظاهر والله أعلم أن قراءة القرآن في البيوت أفضل من قراءته في المساجد، فإن قراءة القُرآن في البُيوت تُوجب هٰذا المعنىٰ، وإذا كانت الصلاة التي يتعبّد فيها بقراءة القرآن أفضُلُها ما كان في البيت إلا في المكتوبة فإن المتعَبَّدَ به فيها وهو أكثرُها فيها – أعني القرآن – أولىٰ أن يكون كذلك هو الأفضل في البيوت.

وكثير من المسلمين يُهملون قراءة القرآن في البيت ويعتنون بقراءة القرآن في المسجد، والأولىٰ أن تكون قراءة القرآن في البيت أكثرُ من قراءة القُرآن في المسجد لعظيم الأثر الذي ذكره أبو هريرة من اتساع البيت علىٰ أهله وحضور الملائكة وهجر الشياطين وكثرة الخير.

ومما ينبّه إليه أنّ بعض الناس يستعوضون عن ذلك بتشغيل آلة التسجيل، فهم مثلا يرون أو وضع آية التسجيل بقراءة سورة البقرة يكون حاميا لها من الشياطين.

والصحيح أن آلة التسجيل لا تقومُ بهٰذا المقام؛ لأن المقصودَ قراءةُ القرآن ممن يقصُد التقرُّبَ به إلىٰ الله، وهٰذا المعنىٰ غير موجود في تلك الآلة التي تشغّل، وقد رُفع سؤالا إلىٰ اللجنة الدائمة في هٰذا في رقية البيت بالأشرطة ونحوِها، فأجابوا بأن هٰذا لا يجوز برئاسة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، وإنما يكون النافع أن يقرأ الإنسان بنفسه أو يأمر أهلَه فيقرؤون.

وقوله: (اتبعوا القرآن ولا يتبعكم القرآن) أي اجعلوه حاكما عليكم ولا تكونوا حكّاما عليه، فإذا تبع الإنسان القُرآن دلّه وأرشده وادخله الجنة، ومن ألقىٰ القُرآن وراءه ظِهريّا ورام أن يكون القرآن علىٰ هواه زجّ القُرآن في قفاه أي دفعه في قفاه فقذفه في نار جهنم.

وعنه عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إن هٰذا القرآن كلام الله، فلا يغرّنكم ما عَطَفْتُمُوه علىٰ أهوائكم. (١).

عن البُخاري ومسلم ومالك وأبي داود وابن ماجه عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ نهىٰ أن يُسافر بالقرآنِ إلىٰ أرض العدو.

وفي راوية أنه قال: «لا تسافروا بالقرآن فإنه لا آمن أن يَنَالَه العدو».

وفي راوية «إنّي أخاف أن ينالَه العدو ».

قال أيوب: فقدْ نالَه العدو وخاصموكُم به.

ختم المُصَنِّف هٰذا الباب، بابَ فضائل القرآن بذكر الحديث الوارد في النهي عن المُسافرَة بالقرآن، ووجه الفضيلة فيه أن هٰذا من تعظيم القرآن؛ لأن العدو لا يُؤمن عليه طلب تنجيس القُرآن وإهانته، فمن تعظيم القرآن وإظهار فضيلته النهي عن المسافرة به إلىٰ أرض العدو.

وقد اختلف أهل العلم في هٰذه المسألة علىٰ أقوال أصحّها جواز السفر به مع أمنِ نَيلِ العدوّ له، كما هو مذهب الشافعية والحنابلة، لأن النبي ﷺ علَّل النهي بقوله: «لا آمن أن ينالَه العدو» فإذا أُمِن نيل العدو له كان جائزا، وأمّا إذا لم يؤمن ذلك عليه فإن الصحيح أن النهي يقتضي التحريم.

وهٰذا آخر التقرير في المجلس الأول،

---

(١) قال الشيخ: وإسناده ضعيف.

البابُ السَّابِعُ

في فَضِيلة القَارئ ورفعِ درَجَاتِه وجزيل ثوابهِ في الآخرة.

لمّا فرغ المُصَنِّف رحمه الله تعالىٰ من ذكر فضائل القُرآن نفسِهِ، أتبعها بباب فيه بيان فضيلة قارئه الذي يتعاطىٰ قراءته، وأشار إلىٰ ذلك بقوله: (ورفعِ درَجَاتِه وجزيل ثوابهِ في الآخرة) وهٰذان المذكوران هما من جملة الفضيلة، ولكنّه أفردهما اهتماما بهما وبيانًا لعظم أثرهما، فإن فضائل القارئ فوقَ هٰذا، ولكن من أعظم هٰذه الفضائل رِفعة درجته وجزيل ثوابه، وقد يُذكرُ الخاص بعد العام تنبيها إلىٰ هٰذه الأصل، كقول إمام الدعوة مثلا في كتاب التوحيد (باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب)، فإن تكفير الذنوب من جملة فضيلة التوحيد، وأفرد اهتماما به، ومن هٰذا الجنس قول المُصَنِّف: (البابُ السَّابِعُ في فَضِيلة القَارئ ورفعِ درَجَاتِه وجزيل ثوابهِ في الآخرة).

عن الجماعة إلا مالك والنسائي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القُرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاقّ له أجران ».

استفتح المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هٰذا الباب بهٰذا الحديث معزوّا إلىٰ الجماعة، والجماعة عنده علىٰ معنىٰ خاص، فإنه يريد بالجماعة الستّة مع مالك والدارمي وأحمد في «المسند»، فهم تسعةٌ عنده، وهٰذا اصطلاح خاصٌّ به، وأما الجماعة حيث أطلقوا عند المحدثين فالمراد بهم أصحاب الكتب الستة، ولهٰذا استثنىٰ مالكا؛ لأنه له علىٰ اصطلاحه في جملة الجماعة دون اصطلاح غيره.

وهٰذا الحديث الذي استفتح به المُصَنِّف هٰذا الباب فيه بيان فضِيلةِ قارئ القُرآن ، لكنّ المراد به هاهنا قراءته أم حفظُه؟ احتمالان.

والصحيح أن المراد به الحفظ دون القراءة لما وقع في رواية عند البُخاري «مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له، مع السفرة الكرام، ومثل الذي يقرؤه ويتَعاهَده وهو عليه شاقّ فله أجران » فتدل هٰذه الرواية المفسِّرة أن المراد بهٰذه الفضيلة الحفظ دون القراءة، فليس معنىٰ الحديث أن يحْذِق بقراءةِ القرآن وتلاوته ويجوّد ذلك ويقابله من لا يضاهيه في تجويد القراءة بل يتتعتع فيها ويَشق عليه، بل المراد من جوّد حفظه وقوّاه في مقابلة من شقّ عليه تقوية حفظه ولكنّه يتعاهد محفوظه.

عن الترمذي والدارمي عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » وروىٰ ابن ماجه عنه نحو ذلك موقوفا عليه.

هٰذا الحديث مما اختلف فيه رفعا ووقفا عن ابن مسعود، والمحفوظ أنه من موقوف من كلام ابن مسعود، لكنّه من جنس ما يُقال: إن له الرّفعَ حُكْما، لأنه لا يقال من قِبَل الرأي، والعراقي في الألفية يقول:

وما أتىٰ عن صاحبٍ بحيث لا ... يقال رأيا حكمُه الرفع علا

ما قال في المحصول نحو من أتىٰ ... فالحاكم الرفعَ لهٰذا أثبتا

فيكون قول ابن مسعود: له حُكم الرفع، ويتحقق ما انتظم فيه من الثواب لأنه من جنس المُسند.

وقوله ههنا «لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » اختلف هل المراد بالحرف حرف التهجي أو المُراد به الكلمة التي هي اسم الحرف، فهل يكون ألف هو حرف واحد، أي كلمة واحدة، أو يكون ألف ثلاثة حروف لأنه مُؤَلف من ألف ولام وفاء ؟ علىٰ قولين أصحهما: أن المُراد اسم الحرف أي الكلمة، فتكون ألف حرف أي كلمة، وعلىٰ هٰذا نقول في قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[البقرة:٢] ذلك حرف والكتاب حرف إلىٰ آخره.

واختار هٰذا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ. وموجب تقديم هٰذا القول أن لفظ الحرف إذا أطلق في كلام النبي ﷺ فالمراد به الكلمة وهو غالب ما في كلام العرب، خلافا لاصطلاح النحْويين.

ولهٰذا عرّض بهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ فقال: (وفاضِلُهم يقول: وكِلْمَة بها كلام قد يُؤم) فإنهم ربما حصروا بعض المعاني المستفيضة في كلام العرب علىٰ معنىٰ اصطلاحي، كحصرهم الحرف في مسمىٰ حرف المبنىٰ أو حرف المعنىٰ، بينهما هو في كلام العرب قد يدل علىٰ الكلمة، وحصْرِهم الكلمة في اللفظة الواحد بينهما هي في كلام العرب قد تدل علىٰ جملة، كما يقال: الكلمة الطيبة ويراد بها جملة (لا إله إلا الله).

الترمذي و الدَّارِمي، عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالىٰ: من شغله قراءة القرآن عن مسألتي أعطيته أحسن ما أعطي السائلين، وفضل كلام الله علىٰ سائر الكلام كفضل الله علىٰ سائر خلقه ».[1]

عن مسلم وأحمدَ ابن حنبل والدَّارِمي عن عامر بن واثلة أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بعُسفان، وكان عمر استعمله علىٰ أهل مكة، فقال: من استعملت علىٰ أهل الوادي ؟ قال: ابن أبْزَا، قال: ومن ابن أبزَا ؟ قال:مولىٰ من موالينا، قال: استخلفت عليهم مولىٰ ؟! قال: إنه قارئ لكلام الله عالم بالفرائض، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أما إن نبيكم ﷺ قال: «إن الله يرفع بهٰذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين ».

ووجه الشاهد من هٰذا الحديث علىٰ فضيلة القارئ: ما فيه من ذكر الرِّفعة بالقرآن والوَضْع به، وهٰذه الرفعة والوَضع عامّان في الدنيا والآخرة، فالله عَزَّوَجَلَّ يرفع بالقرآن ويضع في الدنيا، ويرفع به في الآخرة ويضع.

(١) قال الشيخ: وفي إسناده ضعف.

عن البُخاري و الترمذي وأبوداود و الدَّارِمي وابن ماجه عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».

زاد الترمذي و الدَّارِمي قال أبو عبد الرَّحمٰن السُّلمي: فذاك الذي أقعدني مَقعِدي هٰذا.

وعلّم القُرآن في زمن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتىٰ بلغ الحجاج بن يوسف.

قوله: (وقال أبو عبد الرَّحمٰن السلمي) هو راوي الحديث عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنه قَعَدَ في تعليم القُرآن ثلاثين سنة وكان حاديه هٰذه الفضيلةَ الواردةَ في حديث عثمان.

عن أحمد بن حنبل وعن الترمذي وابن ماجه عن علي كرم الله وجه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن فاستظهره فأحلّ حلالَه، وحرّم حرامه، أدخله الله الجنة وشفّعه في عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت عليه النار».

وفي إسناده ضَعْف، ودأب المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ علىٰ تخصيص عليّ بقوله دعاء: (كرم الله وجهه)، وتخصيص علي بهٰذا الدعاء دون غيره لا ينبغي فهو من شِعارِ الشيعة، كما ذكره ابن كثير في «تفسيره».

عن مسلم والترمذي وأبي داود و ابن ماجه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسّر علىٰ مُعسر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهّل الله له طريقا إلىٰ الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفّتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطّأ به عمله لم يُسرِع به نَسَبُه ».

وفضيلة القارئ المذكورةِ في هٰذا الحديث هي في الجُمل الثلاث: «إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفّتهم الملائكة » فإن نزول السكينة وغَشَيَانِ الرحمة وحفّ الملائكة سببه تلاوة القُرآن الكريم والاجتماع علىٰ ذلك.

وذكر عن الدَّارِمي عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: تدارس العلم ساعة من الليل خير من إحيائها.

وعنه قال عبد الله: نِعم المجلس مجلس تنشر فيه الحكمة وترجىٰ فيه الرحمة.

(عبد الله) يعني عبد الله بن مسعود، وهٰذان الأثران ضعيفان.

عن البُخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «لاحسد إلا علىٰ اثنتين رجل آتاه الله القُـرآن وهو يتلوه آناء الليل والنّهار فسمعه جار له فقال: ليتني أتيت مثل ما أوتي فلان، فعملـتُ مثـل مـا يعمـل، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه في حقه، فقال رجل: ليتني أتيت مثل ما أوتي فلان فعلمتُ مثلَ ما يعمل ».

تقدم بيان معنىٰ هٰذا الحديث، وأن المراد الحسد ههنا حسد الغبطة، وهو أحد الأقسام الثلاثة للحسـد التي ذكرها ابن القيّم في «بدائع الفوائد».

عن أحمد وأبي داود عن معاذ الجُهني أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ القُرآن وعمل به ألبس والداه تاجا يوم القيامة ضوؤه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا لو كانت فيكم، فما ظنكم بالذي عمل بهٰذا».

وهٰذا حديث حسن، رُوي بإسنادين ضعيفين يَشُدُّ أحدُهما الآخر، وفيه بيان فضيلة قارئ القرآن، والمراد بمن تتحقق به هٰذه الفضيلة: حافظ القرآن، لأن لفظة قراءة القُرآن إذا أطلق في السنة فلا يراد به إلا الحفظ، وهٰذا من لغة القرآن والسنة التي تحمل عليها معانيهما كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيّم في «إعلام الموقّعين»، فلفظ القراءة يختص بالحفظ، فيكون معنىٰ قوله ﷺ: «من قرأ القُرآن وعمل به» أي من حفظ القرآن وعمل به، وقع لوالديه من الأجر ما ذكر في هٰذا الحديث من إلباس التاج.

عن الترمذي و الدَّارِمي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رجل يا رسول الله: أي الأعمالِ أحبُّ إلىٰ الله تعالىٰ ؟ قال: «الحَالُّ المُرتَحِل»، قال وما الحال المُرتحِل، قال : «صاحب القُرآن يضرب من أوّل القُرآن إلىٰ آخره، كلّما حلّ ارتحل».

وفي إسناد هٰذا الحديث ضعف، و المُراد بالضرب من أول القُرآن إلىٰ آخره =قراءة ختمة كاملة له، ثم إذا فرغ منها رجع إلىٰ ختمة ثانية وهلم جرا.

عنهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يجيء صاحب القُرآن يوم القيامة فيقول: يا ربي حلّه، فيُلبَسُ تاج الكرامة ثم يقول يا ربي زِده، فيُلبَس حُلة الكرامة ثم يقول: ارض عنه، فيقول: رضيتُ عنه، فيقال له: اقرأ وارقأ ويُعطىٰ بكل آية حسنة».

وهٰذا الحديث قد اختلف في رفعه ووقفه، والصواب وقفه كما نبه عليه الترمذي، إلا أنه من جنس ما يقال إنه لا يقال من قبل الرأي، فيكون له حكم الرفع، فيتحقق لصاحب القرآن هٰذا الأجر من تَحلِيَتِه بتاج الكرامة وحُلّتِها، والمُراد بقارئ القُرآن هاهنا حافظه، وقوله: «اقرأ وارقىٰ» يعني مما تحفظُه، ويعطىٰ بكل آية حسنة.

عن الترمذي وأبي داود وأحمد ابن حنبل عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُما، قال رسول الله ﷺ: «يقال لصاحب القُرآن: اقرأ وارقىٰ ورتّل كما كنت ترتّل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها».

وروىٰ ابن ماجه عن أبي سعيد نحوه.

وحديث أبي سعيد فيه ضَعف، وأما حديث عبد الله بن عمرو فإسناده حسن.

وقوله: «اقرأ وارقىٰ ورتّل كما كنت ترتّل في الدنيا» يعني في قراءتك التي تحفظُها وتكون منزلته عند آخر آية يقرؤها ، وهٰذا الحديث مما استنبط منه ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ أن درجات الجنّة تزيد علىٰ ستة آلاف ومائتين، قال: لأن عدّ آي القُرآن بالاتفاق ستة آلاف ومائتين ثم اختلف ما وراء ذلك من الكُسور، فيكون المجزوم به هٰذا العدّ وما وراء ذلك مما اختلف فيه عد الشاميين والحجازيين والكوفيين ففاضلٌ عن المجزوم به.

عن مسلم وأبي داود عن عُقبة بن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصُّفة فقال: «أيّكم يحِبُّ أن يغدو كل يوم إلىٰ بُطْحَان – أو قال إلىٰ العقيق – فيأتي منه بناقتَين كَوْمَاوَينِ في غيرِ إثم ولا قطِيعةِ رحِم ؟ » قلنا: نحب ذلك. قال: «أفلا يغدو أحدُكم إلىٰ المسجد فيتعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله، وهو خير له من ناقتين وثلاثٍ خير من ثلاث وأربع خير من أربع ومن أعدادهنّ من الإبل ».

قوله ﷺ «بناقتين كَوماوَين » الناقة الكَوْمَاء هي الناقة العظيمة السنام، وفيه: فضيلة تعلم الآي من القرآن، وأن الفضل يقع للعبد في التعلم بأقل قدر، فإذا تعلم المرء آية أثيب عليها، وإذا تعلم آيتين أثيب عليهما، وإذا تعلم ثلاثا أثيب عليهنّ، فلا انقطاع للأجر عند مقدار حفظ القُرآن كلّه، بل من حفظ منه قدرا ولو يسيرا أجر عليه.

عن مسلم والترمذي وأبي داود و ابن ماجه و النسائي عن أبي مسعود البدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤم القوم أقرأهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السُّنَة سواء فأقدمهُم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سنّا، ولا يؤمّن الرجلُ الرجلَ في سلطانه ولا يقعد في بيته علىٰ تكرِمَتِه إلا بإذنه».

في هٰذا الحديث فضيلة قارئ القُرآن؛ لأنه جعل أحق الناس بالإمامة، فـ(يؤم القومَ أقرؤهم لكتاب الله) أي أحسنهم تلاوة له، وأجودُهم أداء في قراءته في أصح قولي أهل العلم في معنىٰ أقرؤهم لكتاب الله.

عن الترمذي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «تعلموا الفرائض والقرآن وعلموا الناس فإني مقبوض».

وفي إسناده ضعف، والفرائض لا تختص بعلم المواريث، بل علم المواريث هو بعض الفرائض، وما يتوهّمه بعض المصنفين في المواريث من اختصاص هٰذا الحديث بهٰذا العلم: غلطٌ، بل يشمَلُ الفرائض، والفرائض اسم لكل ما أوجبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن ذلك حديث أنس في الصحيح «كتب النبي ﷺ فرائضَ الصدقة» يعني المقادير الواجبةَ فيها.

عن الدَّارِمي و ابن ماجه عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله أهلِين من خلقِه» قيل: يا رسول الله: من هم ؟ قال: «أهل القرآن » زاد ابن ماجه «أهل الله وخاصته ». (١)

عن أحمد ابن حنبل و الدَّارِمي عن بُريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إن يلقىٰ القُرآن يلقىٰ صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه القبر كالرجل الشاحب فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك، فيقول: أنا صاحب القُرآن الذي أظمأتك في الهواجر وأسهرت ليلتك، وإن كل تاجر من وراء تِجارتِه، وإنك اليوم من وراء كل تجارة، فيعطىٰ الملك بيمينه والخُلد بشماله، ويوضع علىٰ رأسه تاج الوقار، ويُكسىٰ والداه حلّتين لا يقومُ لهما الدنيا، فيقولان: بم كُسينا هٰذا ؟ فيُقال: بأخذِ وَلَدِكما القُرآن ، ثم يقال له: اقرأ واصعد في دَرَجِ الجنة وغُرَفِها وهو في صعيد ما دام يقرأ هذًّا كان أو ترتيلا ». (٢)

وروىٰ ابن ماجه من أوّله إلىٰ قوله: «وإن كل تاج من رواء تجارته».

عنه(٣) ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: من استمع إلىٰ آية من كتاب الله كانت له نورا.

وإسناد الدارمي ضعيف، لكن أخرجه عبد الرزاق في «المصنَّف» بسند صحيح أنه قال: «من استمع إلىٰ آية من كتاب الله كانت له نورا يوم القيامة»، ومثل هٰذا لا يُقال من قبل الرأي، وبه يعلم أن المرء يُؤجر علىٰ استماع القرآن كما يُؤجر علىٰ قراءته، ولكنّ الفرق بينهما أن القارئ للقرآن يقع له بكل حرف حسنة، وأما مستمع القرآن فبكل آية يستمع لها يكون له نور يوم القيامة.

---

(١) قال الشيخ: وفي إسناده ضعف.

(٢) قال الشيخ: وفي إسناده ضعف.

(٣) قال الشيخ: عنه يعني عن الدارمي لأن الأخبار متسلسة أكثرُها للدارمي.

عن خالد بن مَعدَان: (إن الذي يقرأ القرآن له أجر وإن الذي يسمع له أجران).

وهٰذا فيه نظر، وأقوال التابعين مما لا تقال من قبل الرأي هل تكون من جملة المرفوع أم لا ؟ قولان لأهل العلم. ولو قيل بأنها من قبل المرفوع فإنها تكون من جنس المرسل فتكون ضعيفة.

عن الجماعة إلا مالك عن أبي موسىٰ أن رسول الله ﷺ قال: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجّة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القُرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القُرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مر».

عن الترمذي وأبي داود والنسائي عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة».

وهو حديث جيّد وفيه فضيلة الإسرار بالقرآن، لأن الإسرار بالصدقة هو الأفضل إلا لمعنىٰ خارج عن ذلك يقتضي إظهارها.

والفرق ين الجهر والسر، أن الجاهر يُسمع نفسه ويقصد إسماع غيره ولو لم يَسمع، وأما المُسر فإنه يسمع نفسه ولا يقصد إسماع غيره وإن سمع،

فالفرق بينهما باعتبار قصد الإسماعِ وعدَمِه، فالجاهر يقصد إسماع غيره، والمسر لا يقصد إسماعه، هٰذا هو الظاهر من تصرّف اللفظين، وإلا فإن هٰذه المسألة من غوامض العلم، حتىٰ قال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ فيما نقله السُّبكِي في «طبقاته الكبرىٰ»، إنه لا يَعرف الفرق بين الجهر والإسرار، أي الحد الذي ينتهي إليه هٰذا وذاك، والأشبه ما ذكرناه بِدَلالَة اللسان العربي.

عن أحمد و الترمذي و الدَّارِمي عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «إن الذي لـيس في جوفـه شيء من القرآن كالبيت الخَرِب ».

وإسناده ضعيف، وصح معناه فيما تقدم عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من كلامه عند الدَّارِمي.

عن أحمد ابن حنبل عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «خياركم من تعلم القرآن وعلمه ».

وفي إسناده ضعف، لكن ثبت قريبا من لفظه عند البُخاري من حديث عثمان وهو الذي تقدّم «خيركم من تعلم القُرآن وعلمه ».

الباب الثامن

في الحثّ على القراءة واستذكار القُرآن وتعاهِده

عقد المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هٰذه الترجمة مبيّنا فيها الأدلة التي تحدو العبد لتحثّه علىٰ الاستكثار من قراءة القُرآن، واستذكاره أي دوام تَذَكُره وطلب ذلك، فإن الألف والسين والتاء تدل علىٰ الطلب، فمعنىٰ قوله: (واستذكار القُرآن) أي طلب تذكّره. ومعنىٰ قوله: (وتعاهده) دوام مراجعته، لأنه شديد التفلّت والتفصّي كما سيأتي في الأحاديث المذكورة في هٰذا الباب.

عن البُخاري و مسلم عن أبي موسىٰ قال: قال رسول ﷺ: «تعاهدوا القُرآن فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفلّتا من الإبل في عُقُلِها».

وعنهما وعن مالك وابن ماجه والنسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل صاحب القُرآن كمثل الإبل المُعقَّلَةِ إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت» زاد مسلم في رواية «وإذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره وإن لم يقم به نسيه ».

عنهما وعن البُخاري والنسائي و الدَّارِمي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بئس ما لي أحدهم أن يقول نسيتُ آية كيت وكيت، بل هو نُسِّي» وفي رواية: «لا يقل أحدكم نسيت آية كذا وكذا، بل هو نُسِّي، واستذكروا القُرآن فإنه أشد تفصّيا من صدور الرجال من النَّعَم من عقُلِه ».

قوله ﷺ في حديث ابن مسعود «فإنه أشد تفصّيا» هي بمعنىٰ التفلّت المذكور في حديث ابن عمر، فكأن قوله: «فإنه أشد تفصّيا» أي تفلّتا وذهابا للمحفوظ من الصدر، وهو في ذلك أشد من تفلت النعم إذا عُقلَت من عِقالِها الذي قُيِّدَت به، وفي ذلك الإرشاد إلىٰ دوام استذكار القرآن وتعاهده.

وقوله ﷺ: «بئس لأحدهم أن يقول: نسيت آية كيت وكيت؛ بل هو نُسِّي » فيه كَراهِيّة قول العبد نسيت آية كذا وكذا، كما وقع التصريح به في الرواية الأخرىٰ: «لا يقل أحدكم نسيت آية كذا وكذا »، وإنما كُره ذلك كما استظهره النووي وابن حجر رحمهما الله لما يُظهِرُه اللفظ من معنىٰ الترك وعدم تعاهد القرآن والبعد عنه، فلأجل ما انطوىٰ في هٰذا اللفظ من المعاني المُستقبحة كُرِه أن يقول العبد نُسيت آية كذا وكذا، بل يقول نُسِّيت آية كذا وكذا.

وهل يطّرد هٰذا في غير القُرآن أم يختص بالقرآن ؟

إن نُظر إلىٰ العلة فإن العلة مطّردة في هٰذا وذاك، فإن قول العبد: نسيت حديث كذا وكذا، أيضا مما يُستقبَحُ لما انطوىٰ عليه من المعاني التي تقتضي البُعدَ عن الحديث وهجرِه وعدم تَعَاهُدِه، وإن نُظِرَ إلىٰ اختصاص القُرآن بمعنىٰ زائد عن العلوم كان ذلك أولىٰ أن يُحصر اللفظ به.

وكيف ما كان فإن الأمر يسير، والأولىٰ ألا يستخدم الإنسان كلمة النسيان فيما كان من الوحيين، لما ينطوي في ذلك من معاني الترك، فلا يُحمد أن يقول: ، بل يقول: نُسّيت آية كذا وكذا ونُسّيت حديث كذا وكذا، أما ما وراء ذلك من العلم فليس له من الجَلالَة كما لغيره، فللعبد أن يقول نسيت مسألة كذا وكذا.

عن مالك قال بلغني أن ابن عمر مكث علىٰ سورة البقرة ثمانيَ سنين يتعلّمُها.

هٰذا الأثر ذُكر بلاغا في «موطأ مالك»، والبلاغ دال علىٰ الانقطاع وما كان من هٰذا الجنس فإنه ضعيف، والثابت في مدة تعلم ابن عمر سورة البقرة، ما صح عنه عند ابن سعد أنه مكث يتعلمها أربع سنين، وهٰذا التعلم لا يراد به الحفظ، وإنما يراد به حفظ مبانيها وتفهم معانيها والاطلاع علىٰ مقاصدها والوقوف علىٰ مَراصِدِها فإنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ كان قوي الذهن جيّد الفهم، كما أشار إلىٰ ذلك الباجي في «المُنتقىٰ»، فلا يُتوهّم منه كَلالَة ذِهنِه وضَعفُ فهمِه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، بل هٰذا من تعظيمه للقرآن الكريم، وهٰذا دأب السلف أنهم كانوا يأخذون القُرآن عشرا عشْرا يحفظون مبنها ويتفهّمون معناها ويعرفون ما فيها من العلم والعمل، كما ثبت الأثر بذلك عنهم.

عن النسائي عن السائب بن يزيد أن شُريحا الحضرمي ذكر عند رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «لا يتوسّدُ القرآن».

وإسناد هٰذا الحديث صحيح، ومعناه علىٰ المدح أنه رضي الله عنه لم يكن يهمله ويتركه حتىٰ يكون عنده بمنزلة من توسّده؛ لأن الشيء إذا تُوسّد دل علىٰ عدم الاهتمام به، والمُكرّمات لا تُتُوسّد، ولهٰذا لا يتوسّد الإنسان القرآن ولا كتب العلم لأنها مكرّمة، فكأن الصحابي رضي الله عنه لشدة اهتمامه بالقرآن الكريم في تعاهُده واستذكاره وقيامه به في الليل صار بمنزلة من لا يتوسّد القُرآن.

الباب التاسع

في قراءة النبي ﷺ

عقد المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هٰذه الترجمة المبيِّنَة لقراءة النبي ﷺ للقرآن، وقد اعتنىٰ المحدِّثون بهٰذا، فعقد أبو داود في «سننه» بابا في ذلك، وكذلك الحاكم في «المستدرك»، وأفرد الدُورِي كتابا في قراءات النبي ﷺ، و المُراد بذلك الأحاديث الخاصة المنقولة عن النبي ﷺ في كيفية قراءة شيء من القرآن.

عن البُخاري ومسلم وأبي داود عن عبدالله بن مُغفّل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة علىٰ ناقته يقرأ سورة الفتح أو من سورة الفتح، قال: فرجّع فيها، قال: ثم قرأ معاوية يحكي قراءة ابن مُغفل فقال: لولا أن يجتمع الناس عليكم لرجّعت كما رجّع ابن مُغفل يحكي النبي ﷺ، فقلت لمعاوية كيف كان ترجيعه ؟ قال: آء، آء، آء ثلاث مرات.

وهٰذا الحديث فيه بيان أن من صفة قراءة النبي ﷺ المَد، فإن المراد بالترجيع هنا مد الصوت به، لأن الصحابي لمّا نَعتَه ذكره مدّا، وليس المراد بالترجيع القعقعة بالصوت خفضا ورفعا، كما يفعله بعض الناس، بل تكرار الحرف بخفض الصوت ورفعه حتىٰ يكون كحرفٍ مُكرر أمر مذموم ولا يجوز فعله، كما يقول مثلا الإنسان يرجعوون ويكرر الواو مرارا فإن هٰذا يَحرُم ولا يجوز، ولهٰذا فإن الصدىٰ إذا اقتضىٰ تكرار الكلمة الكاملة أو حروفا حرُم، وإذا كان لتحسين الصوت كان جائزا والأولىٰ الاستغناء عنه، ويُعلم به أن القراءة علىٰ هٰذه الصفة لا تجوز، فلا يجوز للإنسان أن يكرر حرفا لأنه زيادة، كما لا يجوز له أن يُنقص حرفا.

عن البُخاري وأبي داود و ابن ماجه و النسائي عن قتادة قال سـألت أنسـا عـن قـراءة رسـول الله ﷺ، فقال: كان يمُد مدّا، ثم قرأ «بسم الله الرَّحمٰن الرحيم » يمدّ ببسم الله، ويمد بالرحمن ويمد بالرحيم.

المراد بالمد هنا إشباع الحرف الذي بعده ألفٌ أو واو أو ياء، بسم اللــه.. الرحمــن.. الرحــيم هٰـذا هو مراده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عن الترمذي وابي داود و النسائي عن أم سلمة سألها يَعلىٰ بن مَمْلِك، عن قراءة رسول الله ﷺ وصلاتِه، قالت مالكم وصلاتُه ؟! كان يصلي ثم ينام قدر ما صلىٰ، ثم يصلي قدر ما نام، ثم ينام قدر ما صلىٰ حتىٰ يصبح ثم نعت قراءته، فإذا هي تنعت قراءة مفسَّرة حرفا حرفا.

وإسناده جيد، والمعنىٰ في قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (فإذا هي تنعت قراءةً مفسَّرة حرفا حرفا) أي مبيّنة واضحة ظاهرة، فكان النبي ﷺ يبين قراءته فيُفصِح بها.

وللترمذي في رواية ابن أبي مُليكة عنها كان رسول الله ﷺ يقطّع قراءته يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، ثم يقف، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، ثم يقف، وكان يقرأ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾.

وهٰذه الرواية إسنادها ضعيف، وهي أصلٌ بالقول بالوقف علىٰ رؤوس الآي، لقوله (يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، ثم يقف، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، ثم يقف) والصحيح أن الوقف علىٰ رؤوس الآي جائز وليس بسنة، لأنه لايثبت في ذلك عن النبي ﷺ، بل قول الجماهير علىٰ خلافه، وإنما هٰذا قول جماعة من القراء، ثم فشا عند المتأخرين أن الوقف علىٰ رؤوس الآي سنّة، والصحيح أنه سنّة من جهة التبيين لا من جهة نفس الفاصلة، وإذا كان التبيين يقتضي وصل الآية بما بعدها، كان ذلك أولىٰ، فإذا قرأ القاريء ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، ، قلنا: إنه وقف هنا تبيينا فأصاب السنة من جهة التبيين لا من جهة الفاصلة، فإذا كان التبيين علىٰ خلاف هٰذا كان الوصل أولىٰ، كقوله تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾[الماعون] فإن وصل الأولىٰ عن الثانية أولىٰ لما فيه من إظهار هٰذا المعنىٰ. وثبت هٰذا المعنىٰ عن جماعة من السلف أنهم كانوا يكرهون قطع الآية عن التي بعدها إذا اتصل معناها.

عن مسلم ومالك الترمذي و النسائي عن حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ صلىٰ في سُبحتِه قاعدا حتىٰ كان قبل وفاته بعام فكان يصلي في سُبْحته قاعدا، وكان يقرأ بالسورة فيرتّلُهَا، حتىٰ تكون أطول من أطولَ منها، والله أعلم بالصواب.

في هٰذا الحديث بيان صفة قراءته ﷺ أنها كانت ترتيلا، والمقصود بالترتيل الترسّل والتؤدة، وهٰذه هي صفة قراءة النبي ﷺ، فإن الله عَزَّوَجَلَّ قرأ القرآن ترتيلا، كما قال تعالىٰ ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾[الفرقان]، ثم أمر به نبيه ﷺ فقال: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾[المزمل]، ونحن مأمورون بما أُمر به النبي ﷺ، كما قال في «المراقي»:

لنا ما أُمر الرسول سوىٰ ما خصَّهُ الدليلُ

والترتيل المراد به صفة القراءة، وليست نوعا من أنواع القراءة كما في كتب المتأخرين من المجوّدة والقراء، ويجعلونه قسيما للتحقيق والتدوير والحدر، فالصحيح أن الترتيل هو **الصفة العامّة التي تحيط بقراءة القرآن**، وقد تكون حدرا وقد تكون تدويرا وقد تكون تحقيقا، فهٰذه أقسام للترتيل وليس الترتيلُ قسيما لها.

الباب العاشر

في التغنّي بالقرآن وأن حُسن الصوت يزيد القرآن حُسْنا

عقد المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هٰذه الترجمة المتضمنةَ للحث علىٰ تحسين الصوت بالقرآن، فإن التغني بالقرآن في أصح قولي أهل العلم المراد به تحسين الصوت به، وحسنُ الصوتِ بالقرآن يزيده حسنا كما سيأتي في بعض الأخبار الآتية في الباب.

عن البُخاري و مسلم و الترمذي و ابن ماجه و الدَّارِمي عن أبي موسىٰ قال: قال رسـول الله ﷺ: «لـو رأيتني البارحة وأنا استمع لقراءتك لقد أعطيت مزمارا من مزامير آل داود ».

المُراد بقوله ﷺ: «أعطيت مزمارا من مزامير آل داود » المراد حُسن الصوت وليس المـراد بـه الآلـة، وإنما شُبّه بالآلة لحسن صوتِها.

زاد البُرقَانِي قلت: يا رسول الله لو عملتُ أنك تستمع قراءتي لحبّرت لك تحبيرا.

وهٰذه الزيادة عند ابن حبّان والحاكم وهما أشهرُ من البُرقاني، ورجالها ثقات إلا أنها ليست في الصحيح، فأعرض عنها صاحب الصحيح.

شرح السُّنَة رُوي عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يقول لأبي موسىٰ ذكّرنا ربَّنا، فيقرأ أبو موسىٰ وَيَتَلاحَن.

وعن الدارمي نحوه.

وفي إسناده ضعف، والمراد بالتلاحُن هنا تحسين صوته به.

وعن أبي داود و الدَّارِمي و النسائي و ابن ماجه عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: «زيّنوا القرآن بأصواتكم » وفي رواية للدارمي (حسّنوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا).

وعن أبي داود عن عبدالله بن أبي يزيد عن لُبَابَة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس منّا من لم يتغنّىٰ بالقرآن »، قال فقلت لأبي مُليكة: يا أبا محمد أرأيت إن لم يكن حسن الصوت ؟ قال: يحسّنه ما استطاع.

وروىٰ أحمد بن حنبل و الدَّارِمي متن الحديث عن سعد.

والمراد بالتغني كما سبق تحسين الصوت، فقول الرسول ﷺ: «ليس منّا من لم يتغنّىٰ بالقرآن » أي من لم يحسّن صوته بالقرآن، والتحسين بحسب السِّعة كما قال ابن أبي مُليكة (يحسّنه ما استطاع)، وله أن يستعين علىٰ ذلك بما استجد من آلة، كالمكرفونات أو الصدىٰ الذي لا يحصل به تكرر حرف ولا كلمة، فإن هٰذا من جُملة ما يقع في تحسين الصوت ما لم يَمنع منه أمرٌ خارج كأن يكون الصوت شديدا باستعماله، لما في شدة الصوت من الإضرار بآذان مُستمعيه، أو التعدي علىٰ مساجد مجاورة يتأذّىٰ المصلّون فيها برفع الصوت من مسجد آخر، فالأمر دائر بحسب ما تدعو إليه الحاجة، وإلا فالأصل جواز تحسين الصوت بهٰذه الآلات دون ضرر ولا إضرار.

عن البُخاري و مسلم وأبي داود و الدَّارِمي و النسائي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أَذَن الله بشيء ما أذن لنبي أن يتغنّىٰ بالقرآن» قال سفيان بن عيينة: تفسيرُه يستغني به، وفي رواية «لنبي حسَنِ الصوت بالقرآن يجهرُ به» وفي رواية «يتغنّىٰ بالقرآن ويجهر به».

قوله ﷺ: «ما أذن الله بشيء ما أذن لنبي» أي: ما استمعَ لشيء ما استمع لنبي، **فالأذَن هو الاستماع وهو من صفات الله** ﷻ لهٰذا الحديث، والمراد بالتغني تحسين الصوت به ورفعُه، وليس المراد به الاستغناء خلافا لتفسير سفيان بن عيينة.

عن ابن ماجه قال: عبد الرَّحمٰن بن السائب قدم علينا سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقد كف بصره فسلمت عليه، فقال: من أنت ؟ فأخبرته،فقال: مرحبا بابن أخي، بلغني أنك حسن الصوت بالقرآن، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « نزل هٰذا القُرآن بحُزْنٍ فإذا قرأتمُوه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكَوا وتغنّوا به، فلم يتغنّ به فليس منا ».

وفي إسناده ضعف، وإنما يُحمد التباكي إذا كان دون كَلَفة وهو البكاء، وأما الذي يحتاج إلىٰ كَلَفة وطلب فهٰذا غير محمود؛ بل يصلي الإنسان حسب حاله، فإن غُلِبَ وبكىٰ كان ذلك أمرا جارٍ علىٰ وفقِ الطبيعة، وأما طلب التباكي تكلّفا وتنطّعا فإن هٰذا ليس مأمورا به.

ولا يلزم تعلق الخشوع بالبكاء، فرب خاشع لا يبكي، ورب باكٍ لا يخشع، وأكمل الناس حالا وهم النبي ﷺ وأصحابه، لم تقع لهم الأحوال التي وقعت للمتأخرين من الزَّعْقِ والصَّعْقِ والغَشْيِ مع كونهم أكمل أحوالا وأحسنُ نفوسا وأطهر قلوبا، فلا تَعَلُّقَ بين الخشوع وبين هٰذه الأحوال؛ بل حقيقة الخشوع خضوع القلب بين يدي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واقشعرار البدن وجريان الدمع من مظاهر هٰذا الخشوع وقد تظهر وقد لا تظهر؛ لكنها ليست هي نفسُ الخشوع .

عن عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت أبطأت علىٰ رسول الله ﷺ ليلة بعد العشاء ثم جئت، فقال: «أين كنتِ ؟» قالت: كنت أسمع قراءة رجل من أصحابك، لم أسمع مثل قراءته وصوته من أحد، قالت: فقام وقمت معه حتىٰ أستمع له ثم التفت إلي فقال لي: هٰذا سالم مولىٰ أبي حُذيفة، الحمد لله الذي جعل في أمتي مثل هٰذا.

عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أحسن الناس صوتا بالقرآن الذي إذا رأيتموه يقرأ حسبتموه يخشىٰ الله ».

وقد روىٰ الدَّارِمي عن طاوس نحوه مرسلا.

وفي كليهما ضَعف، وهٰذا الحديث ضعيف ومن المتأخرين من حسّنه، والأشبه ضعفه كما ذكر العراقي وغيره.

عنه عن فَضَالَة بن عُبيد أن رسول الله ﷺ قال: «للهُ أشد أذَنا إلىٰ الرجل الحسن الصوت بالقرآن يجهر به من صاحب القَينة إلىٰ قَينَته».

وإسناده ضعيف، والقَينَة هي الجارية المغنّية، ومعنىٰ قوله: «لله أشد أذنا إلىٰ الرجل» أي أشد استماعا إلىٰ الرجل.

تذنيب كالمُخالف للباب

عن الدَّارِمي قال: قدم سلمة البَيْذَق المدينة فقام يصلّي بهم فقيل لسالم لو جئت فسمعت قراءته فلما كان بباب المسجد سمع قراءته فقال: «غِنَاء غِناء».

رُوي عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا القرآن بلحون العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل العشق ولُحُون أهل الكتابين، سيجيء بعدي أقوام يرجّعون القُرآن ترجيع الغناء النَّوحِ لا يُجاوزِ حناجِرَهُم، مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يُعجِبُهم شأنهم ».

عن الدَّارِمي عن الأعمش قال، قرأ رجل عند أنس يلحُن من هٰذه الألحان فكره ذلك أنس.

عن محمدٍ قال: كانوا يرون هٰذه الألحانَ في القُرآن مُحدَثًا.

ختم المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هٰذا الباب بهٰذه الآثار، وعامّتها ضِعاف سوىٰ آخرها، وفيها ذم قراءة القرآن بالألحان، وإنما جعلها المُصَنِّف (كالمُخالِف للباب) لأنها توهِم كراهية تحسين الصوت بالقرآن، وليس هٰذا هو المراد في هٰذه الآثار، فإن الألحان شيء آخر غيرُ تحسين الصوت، هٰذا هو الذي كرهه السلف، وأما ما كان منها متعلقًا بتحسين الصوت، فهٰذا وإن سُمّي ألحانا لكنّه ليس مما يدخل في جنس ما كرهوه، **فالألحان اسم مُجْمل يقع علىٰ معنىٰ تحسين الصوت**، وقد يكون تحسينه بتجويد القراءة وإتقانها وموافقة أداء العرب فهٰذا لا بأس به.

أما ما خرج عن لُحُونِ العرب وأداء أهل القراءات فهٰذا مكروه، فإذا كان علىٰ ألحان الموسيقىٰ ونغماتها كان ذلك محرّما تنزيها للقرآن، فتكون الألحان تارة مباحة وتارة مكروهة وتارة محرمة.

فأما الألحان المباحة فما يراد به تحسين الصوت من موافقة طرائق العرب في الأداء، وعدم الخروج عن سنَنَ أهل القراءة.

وأما المكروه فهو ما خرج عن سننَ أهل القراءات ولم يُوافق لُحُون الفجّار أو الكفَرَة، والمُحرّم ما كان علىٰ قوانين الموسيقىٰ التي وضعها أهل الفجور وتعَارَفُوا عليها.

وهٰذا هو تحرير المسألة المسماة بقراءة الألحان، فتكون منوَّعَة علىٰ هٰذه الأنواع الثلاثة.

وبه يُعلم أن ما خرج عن المباح، فهو إما مكروه وإما محرم، فإذا وقع تلحين للقرآن علىٰ وجه خرج عن أداء أهل القراءات وسنن العرب، ولكن لم يوافق أهل الفجور فإنه يكون مكروها، فإن وافق أنغام الفسق من ضُروب الموسيقىٰ فيكون محرما.

مثل ذلك ما درج عليه أكثر الأئمة الذي يؤمون الناس في المساجد وليسوا بقـرّاء وإن حفِظـوا القـرآن، فإن القارئ هو الذي يأتي بالقرآن علىٰ وجهه،وليس القارئ هو الذي يحفظ القـرآن، فمـثلا مـن يقـول في قراءته - وقد سمعْتُه – (وما أدراك ما هيه ناااار) فإن أهل القراءة مجمعون أنه لا مد هاهنا، فهٰذا لاشـك أنه من الألحان المَكروهةِ، وأكثر الناس قد فتنِوا بهولاء كما وقع لسلمة البَيذَق لما اجتمع عليه النـاس في قدومه المدينة فاجتمعوا لقراءته وهي قراءة مُلحّنة، فينبغي أن يعتني الإنسـان بتجويـد القـراءة بـأن يقـرأ علىٰ سنن من قبله.

وقد روىٰ الدارمي وغيره بسند صحيح عن ابن مسعود قال: «اقرؤوا القرآن كما عُلّمتُم» فدل هٰذا علىٰ أن من قرأ (نار) علىٰ الوجه المتقدم، قراءته مكروهة وهو آثم لأنه قرأ القرآن علىٰ وجه لم يتعلّمـه وإنمـا ابتدعه من جهةِ نفسه، ولهٰذا فإن قراءة القُرآن وإمامة الناس في الصلاة أمر شـديد، ولا ينبغـي أن يتسـاهل الإنسان في هٰذا بل لا بد أن يحرص علىٰ تلقّي القرآن من أهله.

الباب الحادي عشر

في البُكَاء والخشوع عند قراءة القرآن.

تقدم أن الخشوع هو خضوع القلب تذللا لله ﷻ رغبة ورهبة، وهٰذا الخشوع له مظاهر منها: ذَرْفُ الدمعة، واقشِعْرَارُ الجلد، وقد يظهران وقد لا يظهران.

قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[المائدة: ٨٣] وقال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[الحديد: ١٦] الآية، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٣].

روي عن اسماء انها قالت: ما كان أحد من السلف يغشىٰ عليه ولا يُصعَقُ عند قراءة القرآن، وإنما كانوا يبكون ويقشعرّون ثم تلين قلوبهم وجلودهم إلىٰ ذكر الله.

وروي عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها قالت: القرآن أكرم من أن يزيل [عقول] الرجال.

عن البُخاري و مسلم والترمذي و ابن ماجه عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال لي رسول الله ﷺ: « اقرأ علي القرآن » فقلت : يارسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل ؟، قال: «إني أحب أن سمعه من غيري »، قال: فقرأت عليه سورة النساء حتىٰ جئت إلىٰ هٰذه الآية ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾[النساء: ٤١] قال: «حسبك الآن » فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان.

وفي رواية لمسلم قال: قال النبي ﷺ: «شهيد ما دمتم فيهم أو كنت فيهم » شك أحد رواته.

عن ابن ماجه عن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نزل هٰذا القُرآن بحزن فإذا قرأتموه فابكوه، فإن لم تبكوا فتباكوا» الحديث.

عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في قصة الهجرة، قالت: كان أبوبكر رجلا بكّاء لا يملك عينيه إذا قرأ القُرآن.

تقدّم ما في معنىٰ هٰذه الأحاديث، من أن البكاء أثر من آثار الخشوع وغير ملازم له، فقد يخشع الإنسان ولا يبكي، والتباكي علىٰ وجه التكلّف لا يجوز.

وهٰذه الأحاديث صحاح سوىٰ حديث سعد «نزل هٰذا القرآن بحزن»، كما تقدم.

الباب الثاني عشر

في الجهر بالقراءة

تقدم أن الجهر هو رفع القارئ صوتَه بالقراءة مع قصد إسماع غيره وإن لم يسمع، وهٰذا مما يُحمدُ في حال ويمنع منه في حال، فإذا كان في ذلك تقوية للقارئ ونَشَاط له دون مضايقة وإزعاج لغيره، كان ذلك ممدوحا، وأما إذا اقتضىٰ ذلك التشويش علىٰ غيره فإنه يمنع منه لأحاديث الباب التي سيذكرها المُصَنِّف .

عن البُخاري و مسلم و أبي داود عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سمع رسول الله ﷺ رجلا يقرأ سورة بالليل، فقال: «يَرْحَمُهُ اللَّهُ لقد أذكرني كذا وكذا آية، كنت أُنسِيتُها من سورة كذا وكذا».

وفي رواية أسقطَ من سورة كذا.

وفي رواية قالت: كان النبي ﷺ يستمع قراءة رجل في المسجد فقال: «يَرْحَمُهُ اللَّهُ لقد أذْكَرَني آية كنت أُنسِيتُها».

وفي رواية أبي داود قالت: إن رجلا قام من الليل فقرأ فرفع صوته بالقرآن، فلما أصبح قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله فلانا كأيٍّ من آية أذكَرَنِيها الليلة كنت أسقطُّها ».

عن أبس داود عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كانت قراءة رسول الله ﷺ علىٰ قدر ما يسمعه من في الحُجرة وهو في البيت.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (علىٰ قدر ما يسمعه من في الحجرة) أي في الموضع الأخص، (وهو في البيت) أي في الموضوع الأعم، فالحُجْرة موضع من جُملة البيت، فكان النبي ﷺ يقرأ في طرفِ البيت، فيكون من في جوف البيت في الحجرة سامعا له.

عنه أبي هريرة قال: كانت قراءة النبي ﷺ يرفع طَورا ويخفض طَورا.

وإسناد هٰذا الحديث حسن، ومعناه أنه يجهرُ ﷺ تارة، ويُسر تارة أخرىٰ، ولا يلزم أن يكون هٰذا في قراءة مُفرَدَة؛ بل يجوز أن يرفع الإنسان في بعض القراءة ويخفض في بعضِها، وإن راعىٰ في ذلك المعنىٰ علىٰ وجه يصح كان ذلك حسنا، وأما علىٰ ما تكلفه بعض القراء من تخصيص آيات تخفض بالصوت وهي الآيات التي تكلم بها المبطلون من أهل الكتاب والمشركون فهٰذا لا دليل عليه من القُرآن أو السنة؛ بل للإنسان أن يرفعَ ويخفِض فيما شاء من القراءة لكن علىٰ وجه لا يخرج به عن سنَنَ القراءة المُتلقَّىٰ.

عن الترمذي وأبي داود و النسائي و ابن ماجه عن عبد الله بن أبي قيس قال: سألت عائشة رضي الله عنها كيف كانت قراءة رسول الله ﷺ بالليل؟ أكان يسر بالقراءة أم يجهر، فقالت: كل ذلك قد كان يفعل، ربما أسرّ بالقراءة وربما جهر، فقلت: الحمد لله الذي جعل في الأمر سَعَة.

عن ابن ماجه و النسائي عن أم هانئ قالت كنت أسمع قراءة رسول الله ﷺ، وأنا على عريشي.

أي على سطح بيتها.

عن أبي داود عن أبي سعيد قال: اعتكف رسول الله ﷺ في المسجد فسمعهم يجهرون بالقراءة فكشف الستر، وقال: «إن كلكم يناجي ربه فلا يُؤذينّ بعضَكُم بعضا، ولا يرفع بعضُكُم علىٰ بعض في القراءة » أو قال: «في الصلاة ».

وهٰذا الحديث أصل في النظر إلىٰ التشويش علىٰ غيره ممن حوله في قراءة أو صلاة، فإذا كان مؤْذيا لغيره برفع الصوت كان الأولىٰ له أن يخفِضه وحيث لم يتأذّ أحد ساغ له أن يرفع صوته.

وهٰذا الحديث لا يختص بالمسجد الواحد؛ بل المساجد المتعددة إذا رفع أئمتُهُا أصواتهم بهٰذه الأجهزة حتىٰ يُؤذي بعضهم بعضا ويضر ذلك بالمأمونين كان فعلهم محرّما ولا يجوز تمكينهم من ذلك وكان علىٰ ولي الأمر منعُهُم من رفع الصوت علىٰ بهٰذه الصفة التي تضر بصلاة الناس.

روي عن بُريدة قال دخلت مع رسول الله ﷺ المسجد عشاء فإذا رجل يقرأ ويرفع صوته، فقلت: يا رسول الله: أتقول هٰذا مراءٍ فقال: «بل هو مؤمن مُنيب»، قال: وأبو موسىٰ يقرأ ويرفع صوته، فجعل رسول الله ﷺ يتسمّعُ لقراءته، ثم جلس أبو موسىٰ يدعو فقال: (اللّٰهمَّ إن أشهدك أنك أنت الله لا إله إلا أنت أحدا صمدا، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، فقال رسول الله ﷺ: «لقد سأل اللهَ باسمه الذي إذا سئل به أعطىٰ وإذا دعي به أجاب » قلت: يا رسول الله أُخبِره بما سمته منك ؟ قال: «نعم»، فأخبرته بقول رسول الله ﷺ، فقال لي: أنت لي اليوم صديق حدّثني بحديث رسول الله ﷺ.

الباب الثالثَ عشر

في نزول القرآن على سبعة أحرف وكراهية الخِلاف عند الاختلاف في القراءة.

عقد المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هٰذه الترجمة لبيان السَّعة في كيفية قراءة القُرآن الكريم، وأن الله عَزَّوَجَلَّ وسع علىٰ هٰذه الأمة فأنزِل القُرآن علىٰ سبعة أحرف، و المُراد بالأحرف **وجوه القراءة المتلقّاة عن النبي** ﷺ، فكأن معنىٰ الحديث «علىٰ سبعة أحرف» أي علىٰ سبعة أوجه في القراءة، وهٰذا أعلىٰ ما تبلغه الكلمة في القُرآن الكريم من أنواع الاختلاف والتغاير.

ثم نبه إلىٰ كراهية الخِلاف والمُنازعة عند الاختلاف في القراءة، لأن الإنسان قد يقرأ بقراءة متلقّاة ويقرأ غيره بقراءة متلقّاة، ويُعلم من هٰذا الأصل لا ينبغي له أن يقرأ بقراءة هي خلاف قراءة أهل بلده، لما يُثمِرُه ذلك من المُنازَعة والخلاف، فإن العوام تقصر أفهامهم عن إدراك هٰذا المعنىٰ إلا أن يُفهّموا ويعلّموا، ويعلم الإنسان من جماعة مسجده وعْيهُم ذلك = فلا بأس أن يقرأ عليه بقراءات متعددة في صلوات مختلفة، وأما مع الجهل فلا ينبغي أن يدخِلَ الناس في هٰذا المدخل الوعِر.

عن الجماعة إلا ابن ماجه و الدَّارِمي عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة النبي ﷺ، فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ علىٰ حروف كثيرة لم يُقرئنيها رسول الله ﷺ، فكدّت أساوره في الصلاة، فتربّصت حتىٰ سلّم فلَبَّبْتُه بردائي، فقلت من أقرأ هٰذه السورة التي سمعتك تقرؤها ؟ فقال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فقلت: كذبت فإن رسول الله ﷺ أقرأنيها علىٰ غير ما قرأت فانطلقت به إلىٰ رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله إني سمعت هٰذا يقرأ سورة الفرقان علىٰ حروف لم تقرئنيها، فقال رسول الله ﷺ: «أرسله»، اقرأ يا هشام، فقرأ عليه القراءة التي سمعت يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: «هكذا أنزلت إن هٰذا القرآن نزل علىٰ سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه ».

عن مسلم والترمذي وأبي داود و النسائي عن أبي كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت في المسجد فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتُها، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوىٰ قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعا علىٰ رسول الله ﷺ ، فقلت: إن هٰذا قرأ قراءة أنكرتُها عليه، فدخل آخر فقرأ سوىٰ قراءة صاحبه فأمهما رسول الله ﷺ فقرأ فحسّن النبي ﷺ شأنهُما، فوقع في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهليّة، فلما رأىٰ الرسول ﷺ ما قد غشيني ضرب في صدري، ففضتُ عرقا وكأنما أنظر إلىٰ الله تعالىٰ فرَقًا، فقال يا أبي: «أرسِلَ أن أقرأ القُرآن علىٰ حرف، فرددت عليه أن هوّن علىٰ أمتي، فردّ إلي الثانية أن اقرأه علىٰ حرفين، فرددت عليه أن هوّن علىٰ أمتي، فردّ إلي الثالثة اقرئه علىٰ سبعة أحرف، ولك بكل ردّت رددتُها مسألة تسألنِيها، فقلت: اللّهمَّ اغفر لأمتي، اللّهمَّ اغفر لأمتي،وأخّرت الثالثة ليوم يرغب إلي الناس كلُّهم حتىٰ إبراهيم عليه السلام ».

وفي رواية قال إن النبي ﷺ كان عند أضَاةِ بني غِفار فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمّتك القرآن علىٰ حرف، فقال: «أسأل الله معافاته ومغفرته، وإني أمي لا تطيق ذلك» فأتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القُرآن علىٰ حرفين، فقال: «أسأل الله معافاته ومغفرته، وإني أمي لا تطيق ذلك» فجاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ القُرآن علىٰ ثلاثة أحرف، فقال: «أسأل الله معافاته ومغفرته، وإني أمي لا تطيق ذلك»، ثم جاءه الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن علىٰ سبعة أحرف، فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا.

وفي رواية لأبي داود قال لي رسول الله ﷺ: « يا أبيّ إني أقرئت القُرآن فقيل لي: علىٰ حرف أو علىٰ حرفين ؟ فقال: الملك الذي معي قل علىٰ حرفين،قلت: علىٰ حرفين، فقيل لي: علىٰ حرفين أو ثلاثة

فقال الملك الذي معي علىٰ ثلاثة، فقلت: علىٰ ثلاثة حتىٰ بلغ سبعة أحرف ثم قال لي: ليس منها إلا كافٍ شافٍ إن قلتَ سميعا عليما عزيزا حكيما، ما لم تختم آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب. وكذا في مسند أحمد ابن حنبل

وفي رواية النسائي قال: أقرأني رسول الله ﷺ سورة فبينما أنا في المجلس جالس، إذ سمعت رجلا يقرؤها بخلاف قراءتي، فأتيته فقلت له: من علمك هٰذه السورة ؟ فقال: رسول الله ﷺ.

فقلت: لا تفارِقني حتىٰ نأتيَ رسول الله ﷺ.

فأتيت فقلت: يا رسول الله إن هٰذا خَلَف قراءتي في السورة التي علمتني فقال رسول الله ﷺ: «اقرأها إلي فقرأتُها» فقال رسول الله ﷺ «أحسنت»، ثم قال للرجل اقرأ، فخالف قراءتي فقال له رسول الله ﷺ: «أحسنت»، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبي أنزل القُرآن علىٰ سبعةِ أحرفٍ كلُّها كافٍ شاف».

وله في أخرىٰ ما حاك في صدري منذ أسلمت إلا أنه قرأت آية وقرأها آخر غير قراءتي فقلت: أقرأنيها رسول الله ﷺ.

وقال الآخر: اقرأنيها رسول الله ﷺ.

فأتيت النبي ﷺ، فقلت: يارسول الله أقرأتني آية كذا وكذا ؟

قال: «نعم».

وقال الآخر: ألم تقرئني آية كذا وكذا ؟

قال: «نعم».

قال: «إن جبريل وميكائيل أتياني، فقعد جبريل عن يميني وميكائيل عن يساري. فقال جبريل: اقرأ القُرآن علىٰ حرف، وقال: ميكائيل:استزده حتىٰ بلغ سبعة أحرف، كل حرف شافٍ كاف ».

وفي رواية الترمذي قال: لقي رسول الله ﷺ جبريل فقال: يا جبريل: بعثت إلىٰ أمة أميّة فيهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجاري والرجل الذي لم يقرأ كتابا قط، فقال: يا محمد إن القُرآن أنزل علىٰ سبعة أحرف ».

عن البُخاري و مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «اقرأني جبريل علىٰ حرف فراجعته فزادني، فلم يزل استزيده ويزيدني حتىٰ بلغ انتهىٰ إلىٰ سبعة أحرُف ».

قال ابن شهاب: بلغني أن تلك السبعةَ الأحرف إنما هي في الأمر يكون واحدا لا يختلف في حلالٍ

وحرام.

عن البُخاري عن ابن مسعود أنه سمع رجلا يقرأ آية سمع رسول الله ﷺ يقرؤها علىٰ خلاف ذلك.

قال: فأخذته بيدي فانطلقت به إلىٰ رسول الله ﷺ، فذكرت له ذلك، فعرفت في وجهه الكراهيّة.

وقال: «اقرأ كلاكما محسن ولا تختلفوا، فإنما من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا».

عن مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: هجّرت إلىٰ رسول الله ﷺ فسمعا أصوات رجلين اختلفا في آية فخرج رسول الله ﷺ يُعرفُ في وجهه الغضب، فقال: «إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب».

«شرح السنة» عن أبي جُهيم الأنصاري أن رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ تماريا في آية من القُرآن كلاهما يزعُم أنّه تلقّاها من رسول الله ﷺ فتماشيا جميعا حتىٰ أتيا رسول الله ﷺ، فكلاهما ذكر لرسول الله ﷺ أنه سمعها منه، فذكر أن رسول الله ﷺ قال: «إن هٰذا القرآن [نزل] علىٰ سبعة أحرف، فلا تماروا في القُرآن فإن مراءً فيه كُفر».

حديث أبي جُهيم هٰذا الذي عزاه إلىٰ شرح السنة هو عند أحمد في «مسنده» وهو أولىٰ بالعزو لأنه أولىٰ مصادره، وقد ذكر ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ في «مختصر زوائد البزار» أن الحديث إذا خرج عن الكتب الستة فأولىٰ المسانيد به هو «مسند أحمد».

عنه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «المراء في القُرآن كُفر».

عنه عن أبي العالية الرِّيَاحِي إذا قرأ عندَهُ إنسان لم يقل ليس هو كذا، ولكن يقول: أما أنا فأقرأ هكذا، فذُكر لإبراهيم فقال: أُراه قد سمع أنه من كفر بحرف فقد كفر بكلّه.

عنه ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «أنزل القُرآن علىٰ سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن، ولكل حدٍّ مَطْلَع».

عن ابن ماجه عن عبد الله عمرو أنه سمع النبي ﷺ قوما يتدارؤون بالقرآن، فقال: «إنما هلك من كان قبلكم بهٰذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدِّقُ بعضُه بعضا فلا تكذّبوا بعضَه ببعض، فما علمتم منه فقولوه، وما جهلتم فكلوه إلىٰ عالمه».

عن البُخاري و مسلم عن جُندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا القرآن ما أتلفتم عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا».

ذكر المُصَنِّف في هٰذا الباب أحاديث ثابتة صحاحا وحِسانا تضمّنت أن الله ﷻ أنزل القُرآن علىٰ سبعة أحرف، والمراد بالأحرف أوجه القراءة التي تنتهي إليها مما أنزل علىٰ النبي ﷺ، وفي ذلك توسيع علىٰ أمته.

ومعنىٰ قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إن قلتَ سميعا عليما عزيزا حكيما) ليس مرادُه جواز تغيير هٰذا بهٰذا، فإن ما أنزِل لا يجوز تحويلُه، ولكنَّ معنىٰ قوله (إن قلت سميعا عليما عزيزا حكيما) أي إن قلت سمعيا عليما فهو بمنزلة عزيزا حكيما من جهة المعنىٰ، فمعاني القُرآن وإن اختلفت قراءته يصدّق بعضُه بعضا، هٰذا هو الذي حكاه ابن عبد البر في كتاب «التمهيد» وهو مقتضىٰ النظر، فلو اختلفت القراءة بالأداء فإن المعنىٰ لا يتغيّر، فإذا قلنا في قراءة ﴿فتلقّىٰ آدمُ من ربه كلماتٍ﴾ أو في قراءة ﴿فتلقىٰ آدمَ من ربه كلماتٌ﴾ فإن القراءتين لا تخالف إحداهما في المعنىٰ وإن اختلفت في صورة الأداء والإعراب النحْوي، فينبغي علىٰ الإنسان أن يقتفيَ هٰذه الأحرف الواردة عن النبي ﷺ ولا يخرج عنها، ولهٰذا ذُم القراءة بالشواذ لخروجها عن القراءة التي وقع عليها الاتفاق.

وتضمنت هٰذه الأحاديث النهي عن الاختلاف؛ أي التنازع والشقّاقِ عند الاختلاف في آي القرآن في كيفية القراءة، بل من انتهىٰ إلىٰ ما عَلِم، فإنه يقرأ به إن كان قرأه بعلم، أما إن كان قرأه بجهل فلا يجوز له

أن يتكلم بخلاف أصلا.

ولشدّة هٰذا جُعل المراء في القرآن كفرا، كما ثبتت به الأحاديث، وهٰذا قد يكون كفرا أكبر إذا كان علىٰ وجه الشك فإذا كانت مُماراة ومجادلةً تقتضي شكا في القرآن فهٰذا كفر أكبر، وإن كانت لا تقتضي ذلك وإنما هي من التنازع والخصومة فإنها محرّمة كقوله ﷺ في الصحيح «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» أي محرم العبد، فهو من الأفعال المعظّمة علىٰ الذنوب من جنس أفعال الكفر وليس بمخرج لصاحبه عن الملة.

ثم ختم الباب بأثرين أحدهما عن أبي العالية أنه كان إذا قرأ عنده إنسان لم يقل ليس هو كذا وكذا، فكأن كره أن يقول في حرف يُقرأ ليس هو كذا وكذا، ويقول: (أما أنا فقرأ هكذا)، فهو يُخبر بما انتهىٰ إليه علمه ولا ينفي أن يكون وراء ذلك قراءة أخرىٰ لم تبلغه، وهٰذا معنىٰ قول إبراهيم – يعني النخعي – «أرُاه قد سمع أنه من كفر بحرف قد كفر بكلّه» فكأنه قد كره أن ينكر قراءة قد تكون متلقّاة، والقراءات المتلقّاة يجب الإيمان بها.

ثم ذكر عن ابن مسعود عن النبي ﷺ: «أنزل القرآن علىٰ سبعة أحرف» وهٰذا لا يُحفظ مرفوعا وإنما يحفظ موقوفا، وهو الحديث الضعيف من بين هٰذه الأحاديث.

ومعنىٰ الظاهر التلاوة، والباطن التلاوة.

«ولكل حد من الحلال والحرام مَطْلَع» أي مُشرِفٌ بين يديه من الوعد والعيد، ذكر هٰذا الزركشي في موضع من كتاب «البرهان»، وكذلك السيوطي في موضع من كتاب «الإتقان» خلافا لما قرّراه لما بسطا الخلاف فيها، فإن قولَهما في غير موضع المسألة أحسن من قولهما في موضع المسألة لما ذكر الأقوال الخمسة فيها عند السيوطي والأربعة عند الزركشي، وأقدم من ذكر هٰذا المعنىٰ المُحَاسِبي في كتاب «فهم القُرآن» فإنه ذكر هٰذا الأثر ثم قال: (الظاهر التلاوة والباطن التأويل) يعني فهم معناه.

الباب الرابع عشر
في جمعِ القُرآن وتأْلِيفِه

عقد المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هٰذه الترجمة المُنبِئة عن كيفيّة اتفاق جمع القرآن في مصحف، وتأليفه علىٰ هٰذا النحو الذي بأيدينا، فإن القُرآن لم يُنَزّل علىٰ النبي ﷺ مكتوبا مجموعا بين دفّتي مصحفٍ، بل أنزل علىٰ النبي ﷺ منجّما وكان يكتبه من يكتبُه من أصحابه في اللّخِاف والأكتاف والرِّقاعِ والأدُمِ وكانت متفرّقا بأيدي الناس.

ومات النبي ﷺ ولم يجمَع القُرآن علىٰ مصحف ولا ألّف علىٰ وضع، ثم لمّا تولىٰ أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان مما استحسنه مخافة أن يذهب القُرآن أن يجمعَ ما في هٰذه الألواح والأكتاف والرقاع والأدم فجمعها من أيدي الناس وكتبها في صحف كان هٰذا المصحف عند أبي بكر فلما مات انتقل إلىٰ عمر فلما مات انتقل إلىٰ حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ثم أخذه عثمان فنسخ عليه المصاحف الخمسة أو الستة أو السبعة علىٰ أقوالٍ في ذلك، ثم بعثها إلىٰ الأمصار واشتهر المصحف بالمصحف العثماني نسبة إلىٰ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأنه هو الذي نشر المصاحف لما خاف اختلاف الناس بتفرّق المسلمين في البلدان وموتِ الصحابة في الفتوحات.

وبقي هٰذا المصحف إلىٰ يومنا هٰذا علىٰ هٰذا الجمعِ والتأليف، وهو جمع عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأورد المُصَنِّف في هٰذا الباب الأحاديث والآثار الدالة علىٰ هٰذا المعنىٰ.

عن البُخاري عن يوسفَ بن ماهِكٍ قال: إني عند عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا إذ جاءها عراقي قال: يا أم المؤمنين أريني مصحفَك قالت: لم ؟. قال: لعلي أؤلّف القُرآن عليه فإنه يقرأ غير مؤلف. قالت: وما يضرّك أيّهُ قرأتَ قبل؟ وإنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصّل فيها ذكر الجنة والنار، حتىٰ إذا ثاب الناس إلىٰ الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشرب الخمر لقالوا: لا نشرب الخمر أبدا، ولو نزلت: لاتزنوا، لقالوا: لا ندعوا الزنىٰ أبدا، لقد نزل بمكة علىٰ محمد ﷺ وإني علىٰ جارية ألعب: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾[القمر] وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده.

قال: فأخرجت عليه المصحف فأملت عليه آي السور.

عن البُخاري و الترمذي عن زيد بن ثابت قال: أنزل إلي أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مقتل أهل اليمامة فإذا عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جالس عنده، فقال أبو بكر: إن عمر جاءني فقال لي: إن القتل استحرّ يومَ اليمامة بقراء القُرآن وإني لأخشىٰ أن يستحرّ القتل بالقرّاء في كل المواطن = فيذهب من القرآن كثير، وإني أرىٰ أن تأمر بجمع القرآن، قال: فقلت لعمر: كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ، فقال: هو والله خير، فلم يزل يُراجِعنِي في ذلك حتىٰ شرح الله صدري للذي شرح له صدر عمر، ورأيت في ذلك الذي رأىٰ عمر.

قال زيد: فقال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتّهمك قد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه، قال زيد: فوالله لو كلّفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القُرآن.

قال: قلت كيف تفعلا شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ.

فقال أبوبكر: هو والله خير، فلم يزل أبوبكر يراجعني حتىٰ شرح الله صدري إليه.

وفي أخرىٰ فلم يزل عمر يراجعني حتىٰ شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر.

مذكور في «مسند أحمد» هٰذا الفصل من قوله: فقال لي أبو بكر: إنك غلام شاب لا نتهمك، إلىٰ هنا.

فتتبعت القرآن أجمعه من الرّقاع والعُسُبِ واللّخاف وصدور الرجال، حتىٰ وجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة، أو أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع أحد غيره ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ خاتمة براءة.

قال: فكانت الصحف عند أبي بكر حتىٰ توفّاه الله، ثم عند عمر حتىٰ توفّاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

عن أنس أن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قدم علىٰ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وكان يُغازي أهل الشام في فتح أرمينيّةَ وأذربِيجَان مع أهل العراف فأفزعَ حذيفة اختلافهم في القراءة.

فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هٰذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارىٰ.

فأرسل عثمان إلىٰ حفصة أن أرسلي إلينا الصحُفَ ننسخها في المصاحف ثم نردّها إليك.

فأرسلت بها إليه فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيدَ بن العاصي وعبد الله بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف.

وقال عثمان للرّهط القرشيين: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزلَ بلسانِهم.

ففعلوا حتىٰ إذا نسخو الصحف في المصاحف، ردّ عثمان الصحفَ إلىٰ حفصة، وأرسل إلىٰ كل أفقٍ بمصحف مما نسخوا، وأمر بالناس وذلك من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرَق.

وقال زيد: فقدت آية من سورة الأحزاب حين نسخت المصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:٢٣] فألحقناها في سورتها من المصحف.

وفي رواية خزيمة بن ثاتب الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته شَهادة رجلين.

زاد الترمذي قال الزهري: فأخبرني عبيدالله بن عبدالله، أن عبدالله بن مسعود كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف، وقال: يا معشر المسلمين: أُعزَل عن نسخ المصاحف ويتلوّاها رجل، والله لقد أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر، يريد زيد بن ثابت.

ولذلك قال عبد الله بن مسعود: يا أهل العراق اكتبوا المصاحف التي عندكم غلّوها، فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾ [آل عمران:١٦١] فألقوا الله بالمصاحف.

قال الزهري: فبلغني أن ذلك كَرِهَ من مقالة ابن مسعود رجال من أفاضل أصحاب رسول الله ﷺ.

عن البُخاري و مسلم و النسائي عن مسروق قال: قال عبد الله: والذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيما أنزلت، ولو أعلم أحدا أعلمَ مني بكتاب الله تبلغُه الإبل لركبتُ إليه.

وفي رواية شقيقٍ قال: خطبنا عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: علىٰ قراءة من تأمرونني أن أقرأ ؟ والله لقد أخذت القُرآن من فيّ رسول الله ﷺ.

وفي رواية: لقد قرأت علىٰ رسول الله ﷺ بضعا وسبعون سورة، ولقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أنّي من أعلمهم بكتاب الله، وما أنا بخيرهم، ولو أعلم أنّ أحدا أعلمَ مني لرحلت إليه، قال شقيق: فجلست في الحِلَقِ أسمع ما يقولون، فما سمعت رادّا يقول غير ذلك ولا يعيبُه.

وفي رواية النسائي قال: خطبنا ابن مسعود فقال: كيف تأمرونني أن أقرأ علىٰ قراءة زيد بن ثابت، بعد أن قرأت من فيّ رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة، وإن زيدا مع الغلمان له ذؤابتان.

وفي «مسند أحمد ابن حنبل» قرأت من فيّ رسول الله ﷺ سبعين سورة وزيد بن ثابت له ذؤابةٌ في الكتاب.

«شرح السنة» وروي عن مصعب بن سعد قال لما كثر اختلاف الناس في القُرآن قالوا: قراءة ابن مسعود وقراءة أبي بن كعب وقراءة سالم مولىٰ أبي حذيفة،قال: فجمع عثمان أصحاب رسول الله ﷺ فقال: إني رأيت أن أكتب مصاحف علىٰ حرف زيد بن ثابت ثم أبعث بها إلىٰ الأمصار، قالوا: نعم ما رأيت.

قال: فأي الناس أعرب ؟

قالوا: سعيد بن العاصي.

قال: فأي الناس أكتب ؟

قالوا: زيد بن ثابت كاتب الوحي.

قال: فليملي سعيد وليكتب زيد؛ فكتب مصاحف، فبعث بها إلىٰ الأمصار.

قال: فرأيت أصحاب رسول الله ﷺ يقولون أحسن والله عثمان.

وروي عن سُويد ين غَفَلَة قال: سمعت علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: (اتقوا الله أيها الناس، إياكم والغلو في عثمان، قولكم حرَّاق المصاحف، فوالله ما حرَّقها إلا عن ملأ منّا أصحاب محمد ﷺ،جمعنا

فقال: ما تقولون في هٰذه القراءات التي اختلف الناس فيها، يلقىٰ الرجل الرجل فيقول: قراءتي خير من قراءتك، وقراءتي أفضل من قراءتك، وهٰذا شبيه بالكفر، فقلنا: ما الرأي يا أمير المومنين ؟ فقال: إني أرىٰ أن أجمع الناس علىٰ مصحف واحد، فإنكم إذا اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشد اختلافا، فقلنا: نعم ما رأيت.

فأرسل إلىٰ زيد بن ثابت وسعيد بن العاصي، فقال: ليكتب أحدكم وليمُلّ الآخر، فإذا اختلفتم في شيء فارفعاه إلي.

فما اختلفا في شيء من كتاب الله إلا في حرف وآية من سورة البقرة، قال سعيد: (التابوت) وقال زيد: (التّابوه)فرفعاه إلىٰ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: اكتبوه (التابوت)، فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لو وُلِّيتُ الذي ولِي عثمان لصنعت مثل الذي صنع.

قال أبو مجلز: يرحم الله تعالىٰ عثمان لو لم يجمع الناس علىٰ قراءة واحدة لقرأ الناس القرآن بالشِّعر.

ورُوي عن أبي عثمان السُّلمي قال: كانت قراءة أبي بكر وعمر وعثمان وزيد بن ثابت والمهاجرين والأنصار قراءة واحدة، كانوا يقرؤون قراءة العامّة وهي القراءة التي قرأها رسول الله ﷺ علىٰ جبريل عليه السلام مرتين في العام الذي قُبِضَ فيه.

وكان علىٰ طول أيامه يقرأ مصحف عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويتخذه إماما.

ويقال إن زيد بن ثابت شهد العَرْضَة الأخيرة التي عَرَضها رسول الله ﷺ علىٰ جبريل عليه السلام، وهي التي بيّن فيها ما نُسخَ وما بَقِي.

قال أبوعبدالرحمن السُّلَمِي: قراءة زيد بن ثابت علىٰ رسول الله ﷺ في العام الذي توفّاه الله في مرّتين، وإنما سُمّيت هٰذه القراءة قراءة زيد بن ثابت لأنه كتبها لرسول الله ﷺ وقرأها عليه وشهد العرضة الأخيرة وكان يقرئ الناس بها حتىٰ مات، وذلك اعتمدها أبو بكر وعمر في جمعها، وولّاه عثمان كِتْبَة المصاحف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

عن الترمذي عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالوا: يا رسول الله لو استخلفت، قال: « إن استخلفتُ فعصيتم خليفتي لعُذِّبتُم، ولكن ما حدَّثكُم حذيفة فصدّقوه، وما أقرأكم عبد الله بن مسعود فاقرؤوه ».

عن أحمد ابن حنبل عن عبد الله بن عمرو بن العاصي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «استقرئوا القُرآن من أربعة، من عبد الله بن مسعود، وسالم مولىٰ أبي حذيفة ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب ».

عنه عن زيد بن ثابت قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ نؤلف القُرآن من الرّقاع إذ قال: «طُوبَىٰ للشّام» قيل: ولم ذاك يا رسول الله؟ قال: « إن ملائكة الرَّحمٰن باسطة أجنحتها عليها ».

عن البُخاري ومسلم والترمذي عن أنس قال: جَمع القُرآن علىٰ عهد رسول الله ﷺ أربعة كلَّهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وأبو زيد، وزيد بن ثابت، قيل لأنس: من أبو زيد ؟ قال: أحد عمومَتي.

وفي أخرىٰ للبخاري مات ﷺ ولم يجمع القُرآنَ غيرُ أربعة: أبو الدرداء ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد ونحن ورثناه.

وفي مسند أحمد ابن حنبل أن أمّ ورقة الأنصاريّة رضي الله عنها كانت قد جمعت القُرآن وقد أمرها النبي ﷺ أن تأمّ أهل دارها.

ذكر المُصَنِّف رحمه الله تعالىٰ في هٰذا الباب الأحاديثَ الموضّحَةِ لكيفية جمع القُرآن وتأليفه، ثم ختمها بالأحاديثِ المبينَة لمَن جمعَ القُرآن من الرجال والنساء في عهد النبي ﷺ، وأورد في ذلك حديث أنس وفيه أن ممن جمعه في زمن النبي ﷺ: أبي بن كعب، ومعاذ، وأبو زيد، وزيد بن ثابت.

وأبو زيد هو رجل من الأنصار من عمومة أنس اسمه قيس بن السَّكَن، وهٰذا معنىٰ قول أنس: (وأبو زيد ونحن ورثناه) أي ورثناه لما مات، آل إلينا ميراثه لأنه كان من عمومته.

وممن جمع القرآن في عهد النبي ﷺ من النساء أم ورقة الأنصارية رضي الله عنها.

الباب الخامس عشر

في ذم من تعلمَّ القُرآن والعلمَ لغير الله وعقابِهم عاجلا أو آجلا، وذَمّ من سلكَ مسلكهم

لما ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ فضيلة القارئ ورِفعَة درجته ومنزلته في الآخرة =نبه بهٰذه الترجمة أن تلك الأجور لا تحصل إلا لمن تعلّم القُرآن مع تصحيح النية وسلامة قصد القربة إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأما من تعلّمه لغير الله فإن له العقاب العاجل والآجل ومسلكه مذموم مرذول، كما جاءت الأحاديث وسيذكرها المُصَنِّف.

عن مسلم و الترمذي و النسائي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يقضىٰ عليه يوم القيامة، رجل استشهد فأتي به فعرَّفَه نِعَمَه فعرفها، قال: فما عملت فيها ؟ قال: قاتلت فيك حتىٰ استشهدّت قال: كذبت ولكنّك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار.

ورجل تعلم وعلّمه وقرأ القُرآن وأتي به فعرّفه نعمَهُ فعرفها، قال: فما عملت فيها، قال: تعلمت العلم وعلّمته وقرأت فيك القُرآن، قال: كذبت ولكنّك تعلّمت ليقال عالم، وقرأت القُرآن ليقال قارئ فقد قيل، ثم أُمِرَ به فسُحِبَ علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار.

ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كلِّه فأتي به فعرَّفَه نِعمَه فعرفها، قال: فما عملت فيها ؟ قال: ما تركت من سبيل تحبّ أن يُنفقَ فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت ولكنّك فعلت ليقال: هو جواد وقد قيل، ثمّ أمِرَ به فسُحِب علىٰ وجهه ثم ألقي في النار.

عن الترمذي عن كعب بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم العلم ليجاري به العلماء أو ليماري به السفهاء أو يصرف وجوه الناس إليه أدخله الله النار». وقد أخرجه ابن ماجه عبد الله بن عمر وجابر بن عبدالله.

عن الترمذي و ابن ماجه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «تعوّذوا بالله من جُبِّ الحزن»، قالوا يارسول الله: وما جُبّ الحزن، قال: «وادٍ في جهنم تتعوذ منه جهنّم كل يوم أربعمائة مرّة»، قيل يا رسول الله: من يدخله ؟ قال: «أعد للقرّاء المرائين بأعمالهم، وإن من أبغض القراء إلىٰ الله الذين يزورون الأمراء» قال المُحاربي: يعين الجَوَرة.

وإسناده ضعيف، والجوَرَة يعني الظلمة.

عن ابن ماجه عن ابن عباس عن الرسول ﷺ قال: «إن أُناسا من أمّتي سيتفقّهون في الدين ويقرؤون القرآن يقولون نأتي الأمراء فنصيب من دنياهم، ونعتزلهم بديننا، ولا يكون ذلك كما لا يُجتنَىٰ من القتاد إلا الشّوك، كذلك لا يُجتنىٰ من قربهم إلا» قال محمد بن الصَّبَّاح: كأنه يعني الخطايا.

إسناده ضعيف، والقَتَاد شجرٌ ذو شوك.

وعنه عن عبد الله بن مسعود قال: لو أن أهل العلم ووضعوه عند أهله لسادوا به أهل زمانهم، ولكنهم بذلوه لأهل الدنيا لينالوا من دنياهم فهانوا عليهم، سمعت نبيكم ﷺ يقول: «من جعل الهموم هما واحدا هم آخرته كفاه الله هم دنياه، ومن تشعّبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أيّ أوديتها هلك».

وإسناده ضعيف، ومعنىٰ جعل الهموم هما واحدا أي جمعها علىٰ مطلب واحد وهو همُّ الآخرة، وتشعيبها بتكثير مطالب الدنيا يفرّقها، وأحوج الناس في جمع همّته هو المشتغل بتحصيل العلم والدّين فإنه إذا شعّب همّته وفرّق همومه تكدّرت بُحورُه، كما يؤثر عن الشافعي أنه قال: (نقطة من الهموم تكدّر بحرا من العلوم) قال شيخنا أحمد بن علي الخميسي رَحِمَهُ اللَّهُ لما ذكر هٰذه المقالة: (فكيف إذا كان العلم نقطة، والهموم بحرا) يعني في هٰذه الأزمنة.

وعن الدارمي عن ابن منبّه قال: كان أهل العلم فيما مضىٰ يضنّونَ [١] بعلمهم علىٰ أهل الدنيا فيرغب أهل الدنيا في علمهم، فيبذلون لهم دنياهم، وإن أهل العلم اليوم بذلوا علمهم لأهل الدنيا فزهد أهل الدنيا فضنّوا عليهم بدنياهم. [٢]

شرح السنة عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثر منافقي أمتي قرّاؤها».

هٰذا الحديث عند أحمد في «مسنده» وهو أولىٰ بالعزو كما تقدم، وإسناده ضعيف، وليس المراد ههنا بالنفاق النفاق الاعتقادي الذي هو إبطان الكفر، وإنما المراد بذلك نفاق العمل، كما ذكره العينيي في شرح صحيح البخاري، ولا يظنّ أن يكون فشو النفاق بالكفر في قرّاء الأمة، وإنما ذلك في أعمال النفاق أي في الأخلاق التي تقع لأهل النّفاق كخُلْفِ الوعد أو الكَذِب أو نحوَ ذلك.

---

(١) قال الشيخ: يعني يبخلون يحفظون

(٢) قال الشيخ: وإسناده ضعيف.

عنه قال سفيان الثوري: ما شبّهت القارئ إلا بالدرهم المزيّف إذا كسرته خرج ما فيه.

عن أبي داود عن سهل بن سعد قال خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقترئ فقال: «الحمد لله كتاب واحد وفيكم الأحمر وفيكم الأبيض وفيكم الأسود، اقرؤوه قبل أن يقرأه أقوام يقيمونه كما يقام السهم، تتعجلُّ أجره ولا تتأجلُه».

ورواه عن جابر أيضا وروىٰ نحوه أحمد ابن حنبل عن جابر.

ومعنىٰ قوله: «تتعجل أجره» أي تطلُب ثمرتَهُ في الدنيا ولا تؤخّر طلب الأجر عند الله عَزَّوَجَلَّ في الآخرة، وهٰذا أصل في الرد علىٰ المتأكّلين بالقرآن كما ذكره المُناوي في «فيض القدير».

وعن مسلم وأبي داود وابن ماجه عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يخرج قوم من أمتي يقرأون القرآن ليس قراءتكم إلىٰ قراءتهم بشيء، ولا صلواتكم إلىٰ صلواتهم بشيء، ولا صيامكم إلىٰ صيامهم بشيء، يقرؤون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم لا تجاوز صلواتهم تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرَّميّة، لو يعلمُ الجيش الذين يصيبهم ما قضي لهم علىٰ لسان نبيّهم لنكبوا عن العمل » الحديث.

عن أبي داود عن أبي سعيد وأنس أن رسول الله ﷺ قال: «سيكون في أمتي اختلاف وفُرقَه، قوم يحسنون القِيلَه ويسؤون الفِعلَة يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم إلىٰ الرَّمية، ثم لا يرجعون حتىٰ يرتدَّ علىٰ فُوقِه، هم شرّ الخلق طوبىٰ لمن قتلهم وقتلوه، يدعون إلىٰ كتاب الله وليسوا منهم في شيء، من قاتلهم كان أولىٰ بالله منهم »، قالوا: يا رسول الله ما سيماهم؟ قال: «التحليق ». ورواه ابن ماجه عن أبي سعيد.

عن الدارمي عن الأحوص بن حكيم عن أبيه قال: سأل رجل النبي ﷺ عن الشر، قال: « لا تسألوني عن الشر واسألوني عن الخير» يقولها ثلاثا، ثم قال: « ألا إن شرَّ الشرِّ شِرارُ العلماء، وإن خيرَ الخير خيار العلماء ».(١)

وعنه عن زياد بن حُديرٍ قال: قال لي عمرُ: هل تعرف ما يهدم الإسلام ؟ قلت: لا. قال: «يهدمه زلّة العالم وجدال المنافق بالكتاب وحكم الأئمة المضلّين ».(٢)

وعنه عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن من أشر الناس منزلة عند الله يوم القيامة، عالم لا يُنتَفع بعلمه.(٣)

عن الترمذي عن صُهيبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: « ما آمن بالقرآن من استحلّ محَارِمَه »

وإسناده ضعيف والإيمان المنفي هاهنا إذا أريد به القصد والتعمد في الاستحلال صار أصل الإيمان، فإن من استحل المحارم باعتقاد كونها حلال فإنه كافر خارج من الملة، وإن كان المراد بالاستحلال فعل المحرم مع اعتقاد بقاء حُرمَتَه فالإيمان المنفي هنا هو الإيمان الكامل.

---

(١) قال الشيخ: وإسناده ضعيف

(٢) قال الشيخ: وإسناده صحيح.

(٣) قال الشيخ: وإسناده ضعيف.

عن النَسَّائي عن أبي سعيد قال: خطب رسول الله ﷺ عام تبوكٍ وهو مسند ظهرَهَ إلىٰ راحتله، فقال: «ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس، إن من خير الناس رجلا عمل في سبيل الله علىٰ ظهر فرسه أو علىٰ ظهر بعيره، أو علىٰ قدميه حتىٰ يأتيه الموت، وإن من شر الناس رجل يقرأ كتاب الله ثم لا يَرعوِي إلىٰ شيءٍ منه». (١)

عن أحمد ابن حنبل و الترمذي عن عمران بن حصين رضي الله عنه أنه مرّ علىٰ قارئ يقرأ القرآن ثم يسأل الناسَ به، فاسترجع عِمَران وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من قرأ القرآن فليسأل الله به، فإنه سيجيء أقوام يقرؤون القرآن ويسألون به الناس ».

وهٰذا الحديث إسناده ضعيف، وقد حسّنه بعضهم وفيه نظر، واستدل به بعض المعاصرين علىٰ مشروعية دعاء ختم القرآن وأنه مأثور في السنة لقوله: «من قرأ القرآن فليسأل الله به» أي فليدع الله عز وجل بالقرآن، وهٰذا المعنىٰ إن أريد به الدعاء الذي خارج الصلاة فهٰذا صحيح، لأنه ثبت عن أنس رضي الله عنه أنه كان إذا ختم القرآن جمع أهلَه وولدَه وأهل بيته فدعا، وأما إن أريد به إذا ختمه في الصلاة فليس هٰذا الحديث دالاً علىٰ ذلك لأن هٰذا المعنىٰ لم يكن موجودا عند أصحاب النبي ﷺ.

---

(١) قال الشيخ: وإسناده صحيح

«شرح السنة» عن أبي الهيثَمِ عن أبي سعيد الخدري – لا أعلمه إلا مرفوعا – قال: «تعلموا القرآن واسألوا الله به، قبل أن يتعلّمه رجلان، رجل يُباهي به ورجل يستأكل به». (١)

عن الدَّارِمي عن عُبيد بن حسن قال: قسم مصعب بن الزبير مالا في قرّاء الكوفة حين دخل شهر رمضان، فبعث إلىٰ عبد الرَّحمٰن بن معقِل بألفي درهم فقال له: استغنِ بها في شهرك هٰذا، فردَّها عبدالرحمن بن مَعقِل فقال: لم نقرأ القرآن لهذا. (٢)

عن أبي داود والدارمي عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إن وراءك فتن يكثر فيها المال ويُفتحُ فيها القرآن، حتىٰ يأخذه المؤمن والمنافق والرجل والمرأة والحُرّ والعبد والصغير والكبير، فيوشك قائل أن يقول: ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن وما هم بمتَّبِعِي حتىٰ أبتدعَ لهم غيره، فإياكم وما ابتدع، فإن ما ابتدع ضلالة) إلخ.

وفي راوية الدَّارِمي : (قد قرأت القرآن ولم اتّبع والله لأقومنّ به فيهم لعلّي أتبع، فيقوم به: فلا يُتّبع، فيقول: قد قرأت القرآن فلم أتّبع، وقمتُ به فلم اتّبع، لاحتضِرَنَّ في بيتي مسجدا لعلّي اتبع، فيَحْتَضِرُ في بيته مسجدا فلا يُتّبع، فيقول: قد قرأت القرآن فلم أتبع وقمت به فلم اتبع، وقد احتضرت في بيتي مسجدا فلم أتبع، والله لآتينّهم بحديث لا يجدونه في كتاب الله، فلم يسمعوا من رسول الله ﷺ لعلي أتبع، قال معاذ: فإياكم وما جاء به فإن ما جاء به ضلالة).

عن الدَّارِمي عن معاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: (سيبْلَىٰ القرآن في صدور أقوام كما يبلي الثوب فيتَهَافَتُ يقرؤونه لا يجدون له شهوة ولا لذّة يلبسون جُلُود الضأن علىٰ قبول الذئاب أعمالهم طمع لا يخُالِطُه خوفُ إن قصّروا قالوا: سنبلغُ وإن أساؤوا قالوا: سيغفر لنا لا نشرك بالله شيئا).

هٰذان الأثران صحيحان عن معاذ بن جبل فيهما نعتُ حالِ القرّاء المذمومة من كونِ القرآن يجري علىٰ ألسِنَتِهم ولا يَقرّ في صدورهم، ويبتدعون للناس بدَعا علّهم يتبعونهم بها.

---

(١) قال الشيخ: ولا يصح.

(٢) قال الشيخ: وإسناده صحيح.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

عن مالك عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال لإنسان: إنّك في زمانٍ كثيرٍ فقهاؤه قليل قرّاؤه يُحفظ فيه حدود القرآن ويضيّع حروفه، قليلُ من يسألُ كثير من يعطي، يطيلون فيه الصلاة ويقصرون فيه الخطبة، يبدؤون أعمالهم قبل أهوائهم، وسيأتي علىٰ الناس زمان قليل فقهاؤه كثير قرّاؤه يُحفظُ فيه حروف القرآن ويُضيّع حُدوده كثير من يسأل قليل من يُعطىٰ، يطيلون فيه الخطبة ويقصّرون الصلاة، يبدؤون فيه أهواؤهم قبل أعمالهم.(١)

عن الدَّارِمي عن عِمْرَان قال: قلت للحسن يوما في شيء قالَه، يا أبا سعيد ليس هكذا يقول الفقهاء، فقال: ويحكم هل رأيت فقيها قطّ، إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة البصير بأمر دينه، المداوم علىٰ عبادة ربّه.

«شرح السنة» قال رجل لعبد الله بن مسعود: علّمني كلماتٍ جوامعَ نوافعَ، قال: لا تشرك بالله شيئا، وزِل مع القرآن حيث زال، ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيدا بغيضا، ومن جاءك بالباطل فارددده وإن كان قريبا حبيبا.(٢)

روي عن مالك أنه قال: بلغني أن رسول الله ﷺ صلّىٰ بالناس صلاة يجهَرُ فيها فأسقط آية، فقال: يا فلان هل أسقطّتُ في هٰذه السورة من شيء ؟ قال: لا أدري، ثم سأل آخر حتىٰ سأل اثنينِ أو ثلاثة، كلَّهم يقول لا أدري، فقال: «هل فيكم أبي ؟» قالوا: نعم يا رسول الله. فقال: «هو لها إذن» ثم قال: «يا أبي هل أسقطتُّ في هٰذه السورة من شيء ؟» قال: نعم آية كذا، قال: «ما منعك أن تفتحها عليّ ؟»، قال: ظننتُ أنّها نُسخَت أو رُفعت ثم قال رسول الله ﷺ: «ما بال أقوامٌ يُتلىٰ عليهم كتاب الله فلا يدرون ما يُتلىٰ منهم مما ترك، هكذا خرجت عظمتُ الله من قلوب بني إسرائيل، فشهدتَ أبدانهُم وغابت قلوبُهم ولا يقبل الله من عبدٍ عملا حتىٰ يشهدَ بقلبِه مع بدنه».

هٰذا الحديث من بلاغات مالك الضعيفة، وقصّة الإسقاط وطلب فتح أُبي ثابتة، لكن بهٰذا السيّاق التام خاصة في قوله: «ما بال أقوام يتلىٰ عليهم كتاب الله...إلخ» ليس عليها شاهد.

---

(١) قال الشيخ: وإسناده صحيح.

(٢) قال الشيخ: هٰذا الأثر رواه الطبراني في «الكبير» وأبو نعيم في «الحلية»، وهو صحيح عن عبد الله بن مسعود.

وعن الدارمي عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لا خيرَ في قراءةٍ ليس فيها تدبّرٌ ولا في عبادة ليس فيها فقه، الفقيه كل الفقيه من لم يقنّط الناس من رحمة الله، ولم يؤمّنهم مكر الله، ولم يدَعِ القرآن رغبة عنه إلىٰ سواه.[١]

عن البُخَاري عن حذيفةَ أنه قال: « يا معشر القرّاء استقيموا فقد سبقتم سبقًا بعيدا، وإن أخذتُم يمينا وشمالا، لقد ضللتم ضلالا بعيدا ».

عن الترمذي وأبي داود عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: « عُرَضت علي أجور أمتي حتىٰ القَذَاةِ يُخرجَها الرجل من المسجد، وعُرضت علي ذنوب أمتي فلم أر ذنبا أعظم من سورة من القرآن أو آية أتيها رجل ثم نسيَها».[٢]

شرح السنة عن الضحّاك بن مزاحم: ما من أحد تعلم القرآن ثم نسيَه إلا بذنب يُحدِثَه وذلك بأن الله تعالىٰ يقول: «وما أصباكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » ونسيان القرآن من أعظم المصائب.

عن أبي داود و الدَّارِمي عن سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من امرئ يقرأ القرآن ثم ينساه إلا لقي الله يوم القيامة، أجْذَم ».

وروي « اقرؤوا إن شئتم: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾[طه]».

إسناده ضعيف، والأحاديث المرويّة في ذم نسيان القرآن لا يثبت منها شيء، وإنما يُذم إذا كان علىٰ وجه الركون إلىٰ الدنيا والاشتغال بشهواتها، فيذم نسيان القرآن حينئذ، وأما إذا اشتغل الإنسان بتدبير أمور الآخرة من طلب علم، أو تدبير أمور معاشه دون تزيّدٍ في الدنيا، فإنه لا يذم علىٰ ذلك علىٰ الصحيح من أقوال أهل العلم في مسألة نسيان القرآن والتأثيم بها.

---

(١) قال الشيخ: وإسناده ضعيف.

(٢) قال الشيخ: وفي إسناده ضعف.

شرح السنة أن رجلا سأل ابن سيرين قال: رأيت كَأني ألعق عسلاً، من جَامٍ من جَوهَر.

فقال: اتقِ الله وعاود القرآن فإن رجل قرأت القرآن ثم نَسيتَه.

عن الترمذي وابن ماجه القزويني و الدَّارِمي عن زياد بن لَبيدٍ قال: ذكر النبي ﷺ شيئا فقال: ذاك عند أوان ذهاب العلم فقلت يا رسول الله: وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرؤه أبناءنا ويُقرؤه أبناء أبناءهم إلىٰ يوم القيامة؟ فقال: «ثكِلتك أمك يا زياد، إن كنتُ لأراك من أفقه رجل في المدينة، أوليست هٰذه اليهود والنصارىٰ يقرؤون التوارة والإنجيل لا يعملون بشيء مما فيهما». [١]

عن الدَّارِمي عن الحسن قال: العلم علمان، علم في القلب فذاك العلم النفع، وعلم علىٰ اللسان فذاك حجة الله علىٰ ابن آدم.

عن «شرح السنة» عن عبدالله بن عمرو: لا تقوم الساعة حتىٰ يرجعَ القرآن من حيثُ نزل له دوي حول العرش كدوي النحلِ يقول الرب: ما لك ؟ فيقول: يا رب أتلىٰ ولا يُعملُ بي.

عنه ابن مسعود: لا تقوم الساعة حتىٰ يُرفع القرآن ثم يفيضون في الشعر.

عن الدَّارِمي عن ابن مسعود: (عليكم بالعمل قبل أن يُقبضَ، وقبضُه أن يُذهَب بأصحابه، عليكم بالعلم فإن أحدكم لا يدري متىٰ يَفتقِر إليه أو يُفتَقر إلىٰ ما عنده، وإنكم ستجدون أقوما يزعمون أنهم يدعونكم إلىٰ كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم، فعليكم بالعلم وإياكم والتبدّع وإياكم والتنطع وإياكم والتعمّق وعليكم بالعتيق). [٢]

عن الدَّارِمي عن ابن مسعود قال: (كيف أنتم إذا لبِسَتْكُم فتنة يَهْرمُ فيها الكبير ويربو فيها الصغير، إذا ترك منها شيء، قيل أتركت السنة ؟، قالوا ومتىٰ ؟ إذا ذهبت علماؤكم وكثرت جُهّالكم وكثُرت قُرّاؤكم وقلّت فقهاؤكم، وكثرت أمراؤكم وقلّت أمناؤكم والتمست الدنيا بعمل الآخرة، وتُفقّهَ لغير الدين). [٣]

---

(١) قال الشيخ: وهو حديث صحيح.

(٢) قال الشيخ: وهٰذه الآثار ضِعاف.

(٣) قال الشيخ: وإسناده صحيح.

الباب السادسَ عشر

في جواز الأعراض الآجلَة على تعليم القرآن وقراءته لبعضِ النَّاس، وكراهيّة ذلك لبعضهم

عقد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هٰذا الباب مُبينا جواز أخذ شيء من الدنيا علىٰ تعليم القرآن، وهو كالمُناقِض للباب السابق، والتحقيق ألا مناقضة بينهما، فإن الذي يذم إذا كان قصده للدنيا، وأما إذا لم يقصد الدنيا، فهل يجوز له أخذُ العوض علىٰ تعليم القرآن ؟

اختلف أهل العلم رحمهم الله تعالىٰ في هٰذه المسألة علىٰ اتفاقهم علىٰ جواز الأخذ إذا لم يشترط، فإذا لم يشترط الإنسان يجوز له الأخذ، لكن له أن يشترط ويجوز له أن يأخذ حين ذلك علىٰ قوال:

أصحُّها والله أعلم: أنه يجوز ذلك للحاجة، وأما مع عدم الحاجة فالأولىٰ تعظيما لكلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ألا يأخذ الإنسان عليه عوَضا، وهٰذا القول هو الجامع بين الأدلة، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيميّة أن مردّ ذلك وجود الحاجة، فإذا وجدت الحاجة جاز الأخذ، وأما مع الاستغناء فالأولىٰ ترك ذلك.

عن البُخَاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن نفرا من أصحاب رسول الله ﷺ مرّوا بماء فيه لديغ أو سليم فعرض لهم رجل من أهل الماء فقال: هل منكم من راق ؟ فإن في الماء رجلا لديغا أو سليما، فانطلق رجل منهم فقرأ بفاتحة الكتاب علىٰ شاءٍ فبرأ، فجاء بالشاءِ علىٰ أصحابه فكرهوا ذلك وقالوا: أخذت علىٰ كتاب الله أجرا حتىٰ قدموا المدينة، فقالوا: يا رسول الله أخذ علىٰ كتاب الله أجرا، فقال رسول الله ﷺ: «إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله».

عن الجماعة عن سهل بن سعد قال: جاءت امرأة إلىٰ رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله جئت أهبُ نفسي لك، فنظر إليها رسول الله ﷺ، فصعّد النظر فيها وصوّبه ثم طأطأ رسول الله ﷺ رأسَهُ، فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئا جلست، فقام رجل من أصحابه، فقال: يا رسول الله إن لم يكن لك حاجة فزّوجنيها، فقال:فهل عندك من شيء ؟ فقال: لا والله يا رسول الله، قال: «اذهب إلىٰ أهلك فانظر هل تجد شيئا ؟» فذهب ثم رجع، فقال: لا والله ما وجدّت شيئا، فقال رسول الله ﷺ: «انظر ولو خاتما من حديد»، فذهب ثم رجع فقال: لا والله يارسول الله ولا خاتم من حديد، ولكن هٰذا إزاري، قال سهل: ما له رداء فلها نصفه، قال رسول الله ﷺ: «ما تصنَعُ بإزارك إن لِبستَه لم يكن عليها منه شيئا، وإذا لَبِسَته لم يكن عليك منه شيء ؟» فجلس الرجل حتىٰ إذا طال مجلسه قام، فرآه رسول الله ﷺ مُوليّا، فأمر به فدعي فلما جاء قال: «ماذا معك من القرآن ؟» قال: معي سورة كذا وكذا عدَّدهُنّ، قال: «تقرؤهن من ظهر قلب ؟» قال: نعم، قال: «اذهب فقلت ملّتكها بما معك من القرآن».

وسنذكر في فضيلة الفاتحة ما يُضاهي هٰذا.

عن البُخَاري و الترمذي عن أبي هريرة قال: إن كنت لأسأل الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ عن الآيات من القرآن، أنا أعلم بها منه، ما أسأله إلا ليُطعمني شيئا، وكنت إذا سألت جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يجبني حتىٰ يذهب بي إلىٰ منزله، فيقول لامرأته أسماء: أطعمينا، وإذا أطعمتنا أجابني، وكان جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُحبّ المساكين ويجلس إليهم ويحدّثهم ويُحدِّثونه، وكان رسول الله ﷺ يُكنّيه بأبي المساكين.

والحديثُ كالملحق بالباب.

وقد روىٰ عن ابن مَاجَه الفصل الأخير الذي في فضيلة جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عن أبي داود و ابن مَاجَه عن عُبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: علمت ناسا من أهل الصُّفة الكتابَ والقرآن، فأهدىٰ إلي رجلا منهم قوسا، فقلت: ليست بمال وأرمي عليها في سبيل الله، لآتينّ رسول الله ﷺ وأسأله، فأتيته فقلت يارسول الله: رجل أهدىٰ إلي قوسا ممن كنت أعلمه القرآن، وليس بمال وأرمي عليها في سبيل الله، فقال: «إن كنت تحب أن تطوق طوقا من نار فاقبلها» والله أعلم.

هٰذا الحديث هو أصرح دليل للقائلين بالمنع حرمة أو كراهة، في أخذ العوض علىٰ تعليم القرآن وهو حديث مضطرب لا يصح، وإنما أمثلُ شيء يُستدل به ما جاء في القرآن من تنزيه طلب الأجرة عليه، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ عن نبيه ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾[الأنعام:٩٠] في آيات أخر في هٰذا المعنىٰ، أما الأحاديث الصريحة في ذلك فلم يثبت منها شيء وأشهرها حديث عبادة هٰذا.

الباب السابع عشر

في أن السُّنّة لا تُردّ إذا أفادت ما ليس في القرآن.

عقد المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هٰذه الترجمة في بيان أنّ السنة قد تزيد علىٰ القرآن، وجعلَ هٰذا مُتعلَّقا من متعلّقات تفسير القرآن لُيعلم أنه ربما جاء في السنة من الأحكام الزائدة المفسّرة للقرآن فوقَ ما جاء في القرآن نفسِه.

وقد عَبّر بعضُهُم عن هٰذا الباب أن السنةَ قاضيةً علىٰ الكتاب، وبعضُهُم بتعظيم السنة وهو الأولىٰ.

هٰذه النّكتة هي من فوائد المُصَنَّف الشريفة، فهو عرّض بالدارمي الذي بوّب: (بابٌ السنة قاضية علىٰ الكتاب)، وكان الأولىٰ بالدّارمي أن يبوّب كما ارتضىٰ المصنف في أن يقول بابٌ تعظيم السنة، أي والأخذ بما فيها من معانٍ زائدة علىٰ القرآن.

عن الترمذي و أبي داود و ابن مَاجَه و الدَّارِمي عن المِقدَاد بن معدي كَرِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إنّي أوتيت الكتاب ومثلَه معه، ألا يُوشك رجل شبعانَ علىٰ أريكته يقول: عليكم بهٰذا القرآن فما وجدّتم فيه من حلال فأحلّوه، وما وجدّتم فيه من حرام فرحموه، ألا لا يَحل الحمار الأهلي ولا كل ذي ناب من السِّباع ولا لُقطَةُ معاهدٍ ألا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يُقروه، فإن لم يُقروه فله أن يُعْقَبَهم بمثل قِراه».

و للترمذي: «ألا هل عسىٰ رجل أن يبلغه الحديث عني وهو متكيء علىٰ أريكته فيقول بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه استحللناه وما وجدنا فيه حراما حرّمناه، وإنما حرّم رسول الله ﷺ كما حرّم الله تعالىٰ».

وقد أخرج ابن مَاجَه و الدَّارِمي نحو رواية الترمذي.

و روي عن أبي رافعٍ أن رسول الله ﷺ قال: «لأعرِفَنَّ الرجل منكم يأتيه الأمر من أمر، أنا أمرت به أو نهيت عنه وهو متكئ علىٰ أريكته، فيقول: ما ندري ما هٰذا ؟ عندنا كتاب الله وليس هٰذا فيه، وما لرسول الله ﷺ أن يقول ما يخالف القرآن، وبالقرآن هداه الله».

وقد روىٰ الترمذي وأبو داود و ابن مَاجَه عنه نحوه وروايتهم أقصر من هٰذه.

أما حديث أبي رافع فحديث فلا يصح، وأما حديث المقدام – وهو الأول – فحديث صحيح، وهو الحجة في الباب.

الباب الثامن عشر

في أنّه يجوز قراءة القرآن مع الحدث الصغير

هٰذه الترجمة أراد بها المُصَنِّف ذكر حكمٍ من المقدّمات الممهدات لقراءة القرآن، وهو جواز قراءة القرآن مع الحدَثِ الصغير أي الذي يُوجِب وضوءا، وهٰذا أمر مجمعٌ عليه كما ذكره النووي في «التبيان» وفي «المجموع»، فأجمع العلماء علىٰ جواز القرآن مع الحدث الأصغر دون مسٍّ.

عن الترمذي وأبي داود و النَسَّائي و ابن مَاجَه أن عليا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دخل المَخرجَ ثم خرج فدعا بماء، فأخذ منه حفنة فمسح بها، ثم جال يقرأ القرآن فأنكروا ذلك، فقال: إن رسول الله ﷺ كان يَخرُج[1] من الخلاء فيقرِؤنا القرآن ويأكل معنا اللحم، فلم يكن يَحجُبه أو يحجزه من القرآن شيء ليس الجنابة.

عن مالك عن ابن سيرين أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان في قوم يقرؤون القرآن ثم رجع وهو يقرأ القرآن فقال رجل: يا أمير المؤمنين، تقرأ القرآن ولست علىٰ وضوء؟ فقال له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من أفتاك بهٰذا، أو مسيلمة !!!

الأثر والحديث الذي أوردهما المصنف في هٰذا الباب ضعيفان لا يثبتان، ويُغني في تثبيت هٰذا الحكم، الإجماع الذي تقدّم نقلُه.

وبهٰذا ينتهي التقرير علىٰ هٰذا الكتاب النافع في سوابقه ومقدّماته، وهو كتاب يُنصح الاعتناء به في قراءته في التفسير تعلّما لأنه تفسير للقرآن بالمأثور من السنن والآثار.

---

(١) قال الشيخ: (كان يخرج) هٰذا مثل حديث في طبعة لمسلم، أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم كان يمسح علىٰ رأسه وعلىٰ عمامته وعلىٰ الخِمار، في نسخة الحِمار، هٰذا مثل هٰذا الجنس.